

أخبار
الدين
والعلم
والثقافة

أخبار الدين والعلم والثقافة



الطبعة الأولى
1441هـ-2020م

يا رحيم يا رحمن
اغفر لرايد بن سلطان

الأحرف والزخارف



الطبعة الأولى
1442هـ - 2021م

حقوق الطبع محفوظة
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
الإمارات العربية المتحدة

" تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي
تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف
العمرى الصادر عن المجلس الوطني للإعلام "

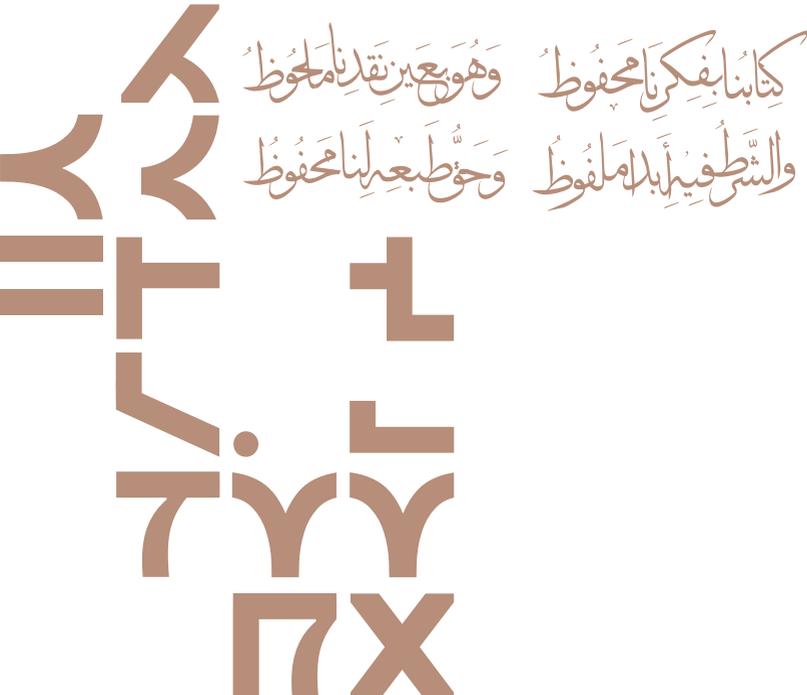
E التصنيف العمري

تمت الموافقة عليه من قبل
المجلس الوطني للإعلام رقم:

MC-03-01-8503762

ISBN : 1234567890000

المتحدة للطباعة والنشر
أبوظبي - الشارقة القديمة -



المحتويات

0 المقدمة
8 الهُدَى النَّبَوِيُّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأُوبَةِ
18 القيم الإنسانية تُطَوِّقُ الْأُوبَةَ
29 فقه العدوى في الشريعة الإسلامية
39 تحصيلُ غَرَضِ الْقَاصِدِ فِي تَفْصِيلِ الْمَرَضِ الْوَاقِدِ
61 الطب عند العرب والمسلمين: معالم في تاريخ النشأة والتطوير
77 قِصص الطاعون في القرآن الكريم وإشارات المفسرين
92 تأصيل الجائحة لغة واصطلاحاً
112 التعليم عن بعد: رهانات وتحولات منهجية
128 فقه الوباء: دراسة في المفهوم والأحكام والعلاج
142 أسس التعامل مع كوفيد 19 المستجد في الفقه الإسلامي

تقديم
لمدير
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

كتاب «رَوْحٌ وَرِيحَانٌ» قُطوف معرفية من حدائق العلم التي تعتني بها جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، أثمرتها جهود الأساتذة والباحثين المنتميين إلى هذا الصرح العلمي المتميز بتوجيه من السياق العام الذي فرض موضوع الكتاب ومنهجية طرحه؛ إذ كان في البدء جملة من المحاضرات العلمية التي تم تقديمها مُصَوَّرَةً، إسهاماً من الجامعة في إغناء النقاش الدائر حول الموضوعات المستجدة والطارئة، وإبداء الرأي فيها تنويراً للمجتمع وخدمة له، بالاستناد إلى الأسس العلمية المضبوطة، انسجاماً مع رسالة الجامعة وأهدافها.

ولأن السياق الحالي محكوم بما حكم به قضاء الله تعالى من تبعات جائحة كورونا، فإن محاضرات هذا الكتاب تسير -جميعها- في هذا الاتجاه، منها ما أبرز مفهومي الجائحة والأوبئة واستقصى دلالاتهما اللغوية والاصطلاحية، ومنها ما أصل للأوبئة في تاريخ المسلمين، مسترشداً بما أقره القرآن الكريم من تشريعات وأحكام وتوجيهات وأخلاق وقيم لمواجهة ما يصيب الإنسانية

من مَحَن، وبِهَدْيِ الرسول عليه الصلاة والسلام في التعامل معها، ومُسْتَلهما من هَدْيِهِ أُسُسَ التعامل معها، وسُبُلَ الحد من آثارها، والوقاية من تبعاتها، ذَرَأًا للمخاطر المستقبلية، وتقليلا من خسائرها على الأقل.

إن مضامين المساهمات العلمية في هذا الكتاب تنتظم بنسق يستجيب للشرط العلمي وملقتضيات التفاعل الواعي مع ما يهيم المجتمع، وما يستجد فيه من قضايا مباحثة تستوجب التعامل معها برؤية متبصرة ومعرفة منفتحة، لا من حيث فهمها فقط، وإنما من حيث تفكيك الظواهر الناجمة عنها وتقديم مقترحات حلولٍ قد تسهم في تجنيب المجتمع ما يمكن أن تكون تكلفته باهضة جدا على المستويات كافة.

إن تجنب الأوبئة أمر غير ممكن -وإن كانت الدعوة إلى ذلك قائمة دائما- لكن سبل التعايش معها وآليات تدبير مخلفاتها واستشراف وسائل الوقاية منها متاح الإدراك من خلال الاستفادة من التجارب الإنسانية عموما، ومن خلال العودة إلى ما أصل له الدين الإسلامي كما حاولت مقالات هذا الكتاب إبرازه. إن المصائب التي هي واقعة بالإنسان لا محالة، إن لم تكن دروسا بليغة لَتَعَلَّمِ الْعِبْرَ، فتلك مصيبة إضافية. فهي لا تحل بالإنسان إلا بأمر الله مصداقا لقوله تعالى(١): ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. بل من المفروض أن ندرك أن بعضها -ما دام الأمر مدبرًا بحكمة ربانية- قد يفتح باب النعم؛ لذلك قيل: في كل نقمة نعمة.

وهذا لن يتأتى إلا بإيمان قوي بأن الإنسان مُمْتَحَنٌ دائما، وأن في امتحان الله عز وجل له تدبيرا خفيا لأمر عائدة بالنفع لا محالة. وعلى الإنسان لإدراك هذا النفع أن يشكر الله أولا على كل حال، وأن يستفيد من تاريخ البشرية ثانيا، ويجتهد ثالثا لينجو من الخسارات المحتملة.

من هذا المنطلق، نرى أن في حكم الله عِبْرَةً ينبغي استخلاصها والعمل

بها، وهي أن ما أصاب البشرية تنبيهه على ضرورة الاجتهاد في إيجاد البدائل الممكنة لواقع تقرر في نفوس الناس أفرادا ومؤسسات، ومن ذلك أدبيات التعليم، الذي هو صلب اهتمام الجامعة. وقد ضم الكتاب ما يشير إلى ضرورة تكييف آليات التعلم مع المستجدات في ظل الجائحة، وهو ما سعت إليه جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية سعيا حثيثا، ونظنها وُفِّقت في ذلك توفيقا بعيدا بتيسر من الله، وبما وفرتة الدولة تحت القيادة الرشيدة من وسائل تقنية متطورة جدا، أسعفت في تيسير العمل والإبداع فيه.

وهكذا، فهذه المحاضرات ستفتح أفقا جديدا للباحثين للانفتاح أكثر على القضايا الطارئة، والعمل على مواكبتها مواكبة علمية ترتكن إلى رؤية الجامعة ورسالتها وأهدافها.

كما ستفتح أمامهم تديرا علميا لقضايا أكثر شمولية وانفتاحا، يستطيعون من خلاله امتلاك مفاتيح مقارنة الظواهر المستجدة بآليات بحثية تستجيب لما يتطلع إليه المجتمع من أدوار مؤسسات التعليم -ومنها جامعتنا- كمؤسسة عليها الرهان لخدمة المجتمع.

وإذ أتقدم بالشكر لكل من أسهم في هذا الكتاب وأشرف عليه حتى رأى النور، أتوجه إلى الله عز وجل بالتضرع ليحفظ بلادنا من كل سوء ويرفع عنها كل بلاء، وأن يُلهم قيادتنا الرشيدة كل سبُل الرشد والتوفيق ليظل بلدنا معافي وسليما، متجددا ورائدا فيما ينفع الإنسانية جمعاء.

وما التوفيق إلا بالله

الهُدْيُ النَّبَوِيُّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأُوبَةِ

الدكتور

خليفة مبارك الظاهري

المدير العام لمركز الموطن للدراسات والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق والمرسلين
سيدنا محمد ﷺ.

يسعدني أن أكون ضيفاً في المحاضرات العلمية عن بعد، التي
تنظمها جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية.

والشكر موصول لإدارة هذه الجامعة؛ لتنسيقها عدة محاضرات
علمية وثقافية، تضم نخبة من الأساتذة والمفكرين والعلماء، تحت
شعار: (روح وريحان)، مما يعد إثراء للفضاء الفكري والمجتمعي
لمناقشة الواقع، فهو دور رائد للتوعية والمعرفة لخدمة العلم
والثقافة والمجتمع.

يمر العالم الإنساني بأزمة كبرى، ومنحى صعب من تاريخه،
معضلة بشرية حقيقية، فيروس كوفيد 19 المستجد، فرضت هذه



الأزمة كل آثارها ونتائجها على العالم، وهي تحدّ إنساني حقيقي، وظرف عصيب يستلزم من البشرية جمعاء قيم التعاون والتضامن، وقيم الالتزام والقانون لتجاوز هذه المرحلة، فإن الأزمات محك الأمم، والمجتمعات تبرز مدى وعيها والتزامها بالمنظومة القيمية والأخلاقية، في مثل هذه الظروف، فتباين الدول والحضارات، وتميزها يأتي من وعيها وإدراكها أهمية تجاوز هذه المحن والالتزام بالقيم الإنسانية والدينية.

والشريعة الإسلامية منهج رباني إلهي، تحوي في نصوصها الشرعية زخماً من الأحكام والتعليمات التي تتعلق بأحكام الطب والوباء والعدوى، فنجد أن كتب العقيدة قد بالغت في تقرير مسألة الأخذ بالأسباب والعدوى، وفصلت بشكل واضح ومتقن الإشكال بين التداوي والتوكل، وبين (لَا عَدْوَى) وبين (تَدَاوُوا).

ونجد أبواباً في السنة النبوية بعنوان: (كِتَابُ الطَّبِّ)، وفيه أبواب كثيرة عن التداوي والوقاية والأخذ بالأسباب، كما في صحيح البخاري ومسلم، ونجد في كتب الفقه ومدونات الأحكام فصولاً كثيرة بعنوان: (أَحْكَامُ الْمَرَضِ وَالْمَرَضَى).

فسيدنا النبي ﷺ كانت له مواقف عظيمة وأقوال جلييلة في التعامل مع الوباء والمرضى والمصابين، مواقف تدعم ما تراه الأنظمة الصحية من سلوك التعامل مع الأوبئة والمرض والمرضى، وذلك يبرز واقعية الدين الإسلامي في التعامل مع المستجدات، وعبقريته في محاصرة الأوبئة الفتاكة و التصدي لها، ورحمته ولطفه في التعامل الإيجابي مع المرضى والمصابين.

نادى كثير من مختلف العقائد والأديان بأن الأوبئة هي انتقام





الله من سلوكيات البشر، يدعون بأنه انتقام إلهي من الإنسان، إلا أن هذا المنحى غير صحيح، فالأوبئة والأمراض هي أقدار الله تعالى كتبها على عباده، وإن أقدار الله كلها خير في السراء والضراء، فيكتب الله أقداره على عباده ليختبرهم وليمحص قدراتهم، ويزيدهم بعدها رفعة وتقدماً؛ يقول الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾^١.
لِذَا قَالُوا: الْبَلَايَا تَعْقُبُهَا عَطَايَا، وَكُلُّ مِحْنَةٍ فِيهَا مِئْتَةٌ.

كما أصابت هذه الأوبئة - وباء عمّواس - زمن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب وتوفي فيه عدد من الصحابة والتابعين، والذي كان قد حدث في الشام، وكان من أبرز من ماتوا فيه أبو عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبل، وهم كانوا من خير القرون، وشهد لهم النبي ﷺ بالخيرية، فإن ذلك يدل على أن الأمراض والأوبئة قدر الله، وقدر الله خير عظيم، وليس له علاقة بعقاب أو انتقام؛ يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^٢، ويقول النبي ﷺ: {عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ}.^٣

فحال المؤمن يتقلب من قدر الله إلى قدر الله، فالأمراض قدر الله، والأوبئة قدر الله، وماهي إلا للاختبار، فيحب الله تعالى فيها صبر المؤمن والملاذ إليه والتضرع له، كما أمرنا النبي ﷺ بالوقاية من

١ - سورة الأنعام، الآية: ١٦٥

٢ - سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

٣ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرفاق، باب المؤمن أمره كله له خير، رقم الحديث: ٥٤٥٢.

الأمراض والأوبئة، يقول في الحديث الشريف: {لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَيَّ مُصِحًّا}،^١ أي: لا يؤتى بمريض على صحيح سليم؛ مخافة أن يعديه. وقال الرسول: {إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ -أَيَ بِالطَّاعُونَ- بِأَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ}.^٢

فهذه نصوص نبوية فيها إشارة إلى أن الإنسان يجب أن يتخذ سبل الوقاية من هذه الأمراض، وأن لا يتكل ويتوكل وينسى سبل الوقاية.

وهذه الأحاديث النبوية تؤسس لمفهوم الحجر الصحي، وهو عدم مخالطة الناس، والابتعاد عن التجمعات واللقاءات؛ مخافة أن ينتشر المرض.

ويتأكد مفهوم الحجر الصحي عند من يشك فيه أنه يحمل هذا الفيروس، فالاحتياط بالتزام الحجر الصحي هنا يصبح واجباً.

وأما حديث النبي ﷺ المشهور والمتداول في كتب العقائد وأصول الدين: {لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ}،^٣ فالمقصود به -كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ- هو إبطال من يعتقد أن الأشياء تعدي بطبعها وليست بأمر الله، فأراد النبي ﷺ أن يوضح في هذا الحديث أن العدوى موجودة وحقيقة وتكون بأمر الله، لكن على الإنسان أن يتخذ التدابير السليمة للوقاية من الأمراض والأوبئة؛ لذا يقول النبي ﷺ: {فِرًّا مِنَ الْمَجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ}.^٤

١ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، رقم الحديث: ٤٢٣٥.

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتياط في الفرار من الطاعون، رقم الحديث: ٦٦٠٧.

٣ - أخرجه الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، رقم الحديث: ١٠٤٠٦.

٤ - أخرجه البيهقي في سننه: كتاب النكاح، جماع أبواب العيب في المنكحة.



كما أن الأثر المعروف: {لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارٌ} قاعدة جليلة في الفقه الإسلامي لبناء مفهوم الوقاية من الأمراض بجميع أنواعها، ومن الأوبئة بجميع أنواعها، فهي تقر أن الوقاية من الأمراض واجبة وجوباً شرعياً وعقلياً.

وعليه، يجب الالتزام بكل التعليمات التي تحقق انحسار هذا المرض، ومنها الالتزام بأداء صلاة التراويح والقيام والجمعة في البيوت، فإن الشريعة الإسلامية تسعى إلى إزالة الضرر أو تقليله، وكما هو معروف أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والأخذ بالرخص أولى من العزيمة؛ حفظاً للنفس.

ومن غير المقبول شرعاً ولا عقلاً مخالفة هذه الأمور، فالدين واقعي، ويسعى إلى إزالة الضرر، فمحال أن يأمر بالصلاة في جماعة، في وقت يجب فيه على كل إنسان أن يلتزم بالإجراءات الاحترازية، فالحياة في الدين غالية، وحفظ النفس مقدم على كل الكليات الكبرى كما هو عند الإمام الزركشي، فكيف يكون هناك دين بلا حياة.

أمرنا النبي ﷺ باتخاذ أسباب الوقاية قبل المرض، وأمر البشرية بالمحافظة على أنفسهم من الأمراض والأسقام قدر المستطاع، فهذه التعليمات الراقية ما هي إلا هدي نبوي راق، وسلوك حضاري رفيع. فجعل النبي ﷺ الطهور شرط الإيمان، فالمحافظة على النظافة الشخصية، ونظافة اليدين والجسد، جزء من الإيمان، كما دل على ذلك الحديث الشريف.

١ - أخرجه الإمام أحمد، مسند بني هاشم، رقم الحديث: ٢٧٨٤.



وقال ﷺ: {لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ}، فهو دلالة واضحة على أهمية النظافة الشخصية في هذا الدين، كيف لا والنظافة بوابة للحفاظ على النفس من تلك الجراثيم، التي تهلك الجسد وتتعب الروح بالأمراض والأسقام.

وتتأكد النظافة في هذه الأيام، فقد أثبتت منظمة الصحة العالمية أن غسل اليدين باستمرار والمحافظة على النظافة الشخصية أمر وقائي مهم لمنع تفشي هذا الفيروس ووصله إلى الإنسان.

ويتعين على كل واحد منا الأخذ بأحكام النظافة الشخصية العامة، والاحتياطات الخاصة بهذا الوباء، من: غسل اليدين بالصابون، ولبس القفازات والكمادات، والالتزام بالتعليمات الصحية الصادرة من الجهات الرسمية واجب شرعي للتوقي من الفيروس.

كما أن النبي ﷺ أمرنا بالتداوي من الأمراض والأوبئة، يقول النبي ﷺ: {يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً}.^٢

وفي هذا الحديث فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: أمر النبي ﷺ بالعلاج من الأمراض والأوبئة، فلا يتهاون أحد بهذا الأمر النبوي، فالنفس غالية في شريعتنا الإسلامية، يقول الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.^٣

إن الحياة هي أساس الوجود، والإنسان هو روح العالم، وهو عين

١ - أخرجه ابن ماجه في سننه: باب المحافظة على الوضوء، رقم الحديث: ٢٧٩.

٢ - أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، رقم: ٢٠٤٨.

٣ - سورة المائدة، الآية: ٣٢.



الكون، ومن ثم كانت الحياة الإنسانية أشد جميع أنواع الحياة في الأرض حرمة؛ لأن الإنسان أشرف الخلق؛ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ - أَيِ النَّاسِ - عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.^١

سيفقد هذا الكون كل جماله، بل يفقد كل معانيه إذا غابت فيه الحياة.

أما الفائدة الثانية: فتشجيع النبي ﷺ للبشرية جمعاء على البحث والتنقيب عن العلاجات لهذه الأمراض والأوبئة في قوله: {يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً}.^٢

ومن هنا تبادر قيادة دولة الإمارات العربية المتحدة بدعم المجال الصحي في الدولة، وتوفر له كل الإمكانيات، وتبني له كل الاحتياجات، حتى سمعنا هذه الأيام بخبر مفرح، أنه تم منح براءة اختراع من وزارة الاقتصاد الإماراتية لعلاج بالخلايا الجذعية مبتكر وواعد لالتهابات فيروس كورونا المستجد - كوفيد ١٩ -، وقد قام بتطوير العلاج فريق من الأطباء والباحثين في مركز أبوظبي للخلايا الجذعية.

فهنيئاً لدولة الإمارات العربية المتحدة قيادة وشعباً هذا المنجز العلمي الكبير، فدولتنا ترسم ملامح حضارةٍ باسقةٍ وعاليةٍ متفوقةٍ في جميع مجالاتها: في الفضاء، والطب، والتعليم والدراسات الإنسانية، حفظ الله هذه الدولة العظيمة قيادةً وشعباً.

كما يحثنا النبي ﷺ على التفاؤل والأمل في وقت الأزمات، فإنه يحب الفأل الحسن، أمرنا أن ننظر إلى النور ولا ننظر إلى الظلام، أن

١ - سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

٢ - أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، رقم الحديث: ٢٠٤٨.



ننظر إلى اليسر ولا ننظر إلى العسر، وأن ننظر إلى الفرج ولا ننظر إلى الضيق، فإن العسر يعقبه يسر، وإن الضيق يأتي بعده الفرج. فمن باب التفاؤل لدى رسولنا ﷺ أنه {كَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}¹. ففيه أدب رفيع، أن نبعث التفاؤل في وقت الأزمات، فلا داعي للخوف والفرع والهلع، وإنما نتفاءل بالخير، فالتفاؤل مفتاح لتجاوز هذه الأزمات بإذن الله.

إن دور الأطباء يتعدى العلاج ومكافحة المرض داخل الأجساد إلى إعطاء المريض دفعة معنوية روحية؛ قال رسول الله ﷺ: {إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفْسُوا لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَيُطِيبُ نَفْسَ الْمَرِيضِ}².

فهذا توجيه نبوي جليل في مراعاة نفسية المريض بتطبيب خاطره، وتوجيه أطيب الكلام وأعذبه له، والترفق له بالحسنى، فكم هو بحاجة إلى ذلك، فالأم المرض ليست سهلة، وتفقد في كثير من الأحيان صواب الإنسان، فلذلك من مقام هذا الحدث التلطف مع المرضى وتسليتهم، فقد كان النبي ﷺ إذا دخل على مريض سأله: هَلْ تَشْتَهِي شَيْئًا،³ يَسْأَلُ عَنْ حَوَائِجِهِمْ، وَيُلَبِّي لَهُمْ مَا يُرِيدُونَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ.

كما أن النبي ﷺ رغب في الدعاء للمريض، فهي هدية جميلة وعطية نبيلة، يقدمها الإنسان إلى المريض، وكان من هديه ﷺ

١ - أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب عبادة الأعراب، رقم الحديث: ٥٢٥٦.

٢ - أخرجه الترمذي في جامعه: أبواب الطب، رقم الحديث: ٢١٠٦.

٣ - أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، رقم الحديث: ٣٩٠٧.



ومن أفعاله أن يدعو للمرضى، وكان ﷺ يَقُولُ: {اللهم ربَّ النَّاسِ،
أَذْهِبِ الْبَاسَ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا
يُغَادِرُ سَقَمًا}.^١

فالدعاء لهم قربة، وهو من عظيم النبل والأخلاق، وجميل القيم
والفضائل.

وعلى المريض أن يؤمن بقضاء الله وقدره، يقول النبي ﷺ: {لَا
يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لِأَبَدٍ فاعِلًا، فَلْيَقُلْ:
اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ
خَيْرًا لِي}.^٢

وأما المحور الأخير من هذه المحاضرة فسأخصه للحديث عن
إسهامات جليلة للعلماء المسلمين، في التعامل مع الأوبئة، فقد
كان للعلماء والأطباء المسلمين القدامى مسيرة طويلة مع مقاومة
الوباء، وحاول بعضهم تقديم نصائح للتعامل مع الأوبئة، وكان من
هؤلاء الطبيب أبو بكر الرازي الذي شرح في كتابه (الحاوي) تفصيل
مرض الجذام وطرق عدواه، ومن أشهر مؤلفاته المبتكرة كتابه في
الجدري والحصبة، وهو أول كتاب من نوعه في هذا الموضوع، وقد
ميز الرازي بين المرضين ووصف بدقة تشخيصهما، وهو يلح على
أهمية الفحص الدقيق للقلب والنبض والتنفس عند مراقبة تطور
المرض .

وقد لاحظ أن ارتفاع الحرارة يساعد على انتشار الطفح eruption،
كما أشار إلى وسائل وقاية الوجه والفم والعين.

١ - أخرجه الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك، رقم الحديث: ١٣٦٠٣.

٢ - متفق عليه من حديث أنس، أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم الحديث: ٥٣٧١، ومسلم:
كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، رقم الحديث: ٤٩٦٩.



وقدم ابن سينا نصائح للوقاية من الطاعون الذي يصفه بـ: «الموت الأسود»، تتشابه إلى حد كبير مع النصائح المقدمة حالياً للوقاية من فيروس كورونا المستجد (كوفيد- ١٩).

يقول ابن سينا: «توصّلتُ لنتيجةٍ تُفيدُ بأنَّ جميعَ الأمراضِ المُعديةِ تنشأُ وتنتشرُ بواسطةِ موادٍّ صغيرةٍ جداً (فيروسات) وغيرِ مرئيةٍ بالعينِ المُجرّدةِ، أعدادُها هائلةٌ، وهي تُسببُ الحمى والموتَ الأسودَ (الطاعون) .. وتلتصقُ هذهِ الموادُّ بكلِّ شيءٍ (يديك ووجهك وشعرك وملابسك)».

وكان ابن سينا توصل إلى طريقة لعزل الناس لمدة أربعين يوماً، ومن هنا جاءت فكرة الحجر الصحي، وانتقلت إلى إيطاليا عبر تجار البندقية في القرن الرابع عشر، حيث كانوا يعزلون ركاب السفن لمعرفة ما إذا كان لديهم أعراض الطاعون قبل أن يسمح لهم بالوصول إلى شواطئ المدن أثناء الوباء أو الموت الأسود الذي اجتاح أوروبا آنذاك.

وفي الختام، نسأل الله أن يتقبل منا ومنكم الصيام والقيام، وأن يرفع عنا هذه الأزمة، وأن يحفظ بلادنا قيادةً وشعباً، وأن يوفق الطاقم الطبي ويسددهم، وأن يعيد علينا هذه الأيام بالخير والبركة والسرور والسعادة.



القيم الإنسانية تُطَوِّقُ الأوبئةَ

الدكتور عمر الدرعي

المدير التنفيذي للشؤون الإسلامية
في الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد،
اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإنني أحمد الله تعالى إليكم، وأسأله عز وجل دوام الخير
والرخاء والنعمة والسعادة على دولة الإمارات العربية المتحدة
قيادة وشعباً، وعلى شعوب الإنسانية جمعاء.

كما أشكر لجامعتي جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية هذه الجهود
النيرة المباركة في خدمة القيم الإنسانية، وحفز وتشجيع الكوادر
الوطنية لمواكبة التطور الثقافي في دولة الإمارات، وخصوصاً في إمارة
أبوظبي الحضارة والمعرفة والثقافة والعطاء... وأسأل الله تعالى
لهذه الجامعة دوام التوفيق والسداد في ظل تعزيز رسالة الاعتدال

والتسامح، والمكنة العلمية والشرعية، في سبيل صناعة القيادات الوطنية في الخطاب الشرعي بالدولة.

أيها الأحبة: عنوان حديثنا في هذه المحاضرة سيدور حول: (القيم الإنسانية)، وكيف نستطيع من خلالها أن نطوِّق الأوبئة... وقد ناسب أن نتناول هذا الموضوع نظراً لما تمرُّ به الإنسانية من ظرف عصيب إبان اسستشراء وباء كورونا المستجد كوفيد (١٩).

وإذا كان هذا الوباء قد خنق الأنفاس فإن الأكسجين للخلاص منه يكمن في تكاتف النفوس البشرية، والتضامن الإنساني، والتعاون.. وتعكير نقاء هذا الهواء يكمن في الغبار الخانق المتفاقم كلما علت صيحات الأنا، وتصاعدت الأثرة واستقوى نَفْس الذوات والأناية والاستغلال ...

وحتى لا تتوارى الفضائل في هذه الحرب وراء غبار هذه النازلة، ونفانق أتربتها فإن الواجب أن نرجع جميعاً إلى مرجعية القيم الإنسانية المشتركة التي بها النجاة إن شاء الله..

مفهوم القيم:

قبل البدء في الموضوع لا بد من الوقوف عند مفهوم: (القيم)، التي هي جمع قيمة، والمقصود بها مجموعة من المبادئ والفضائل والمثل والضوابط الأخلاقية التي هي المرجعية المقومة لسلوك الفرد، فالقيم ترتبط بالأخلاق التي هي ثمرة الأديان، وتتميز بالشمولية والكلية، فهي منظومة مرجعية، منها قيم إنسانية وحضارية وجمالية وكونية، ودينية، وأصل اعتبارها قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

١ - سورة الروم، الآية: ٢٠.

٢ - سورة الروم، الآية: ٢٠.



النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴿١﴾ ، وقوله:
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^٢ .

وحتى لا يتشعب بنا الكلام في هذا الموضوع الشيق أحب أن
أختصر نطاق الحديث في بعض القيم المحورية التي
ترسيها بلادي دولة الإمارات بمبادرات وطنية، وجهود مؤسسية
عظيمة.. وسنطوق هذا الوباء عندما نعود إلى هذه القيم، ونعمل
على تدبرها وتفهمها.. وممارستها... ومن أعظم هذه القيم التي
نتزامن معها

الاستعداد للخمسين وعلاقته بالقيم:

قيمة الاستعداد للخمسين، هذه المناسبة الوطنية التي نحتفي بها
هذه السنة، والعلاقة بين هذه المناسبة والقيم واضحة، فأهم ما
تحتاجه الإنسانية في المستقبل هو القيم، والاستعداد للخمسين لا بد
أن يكون على وفق منهج القيم من أجل الوصول بمنجزاتنا إلى بر
الأمان.. ولا تجد هذه الأوبئة مكاناً لإعاقة هذا المسير ..

ونضرب لذلك مثالا: الاستعداد للمستقبل لا يكون إلا بوسائل علمية
متطورة، واكتساب هذه الوسائل يحتاج إلى الانفتاح على العالم
والمخالطة مع أبنائه المتعددي الأديان والأعراق والأجناس، فلا بد
إذن قبل أن ندخل للاستعداد للمستقبل أن نغرس في نفوسنا قيمة
احترام الإنسانية والتسامح؛ لأنه لا يمكن الاستعداد للمستقبل دون
الأخذ بهذه القيمة وغيرها من القيم.

التأصيل الديني للاستعداد للمستقبل:

وعندما نتحدث عن الاستعداد للخمسين فإننا نتحدث عن استشراف
المستقبل الذي يعني الإجابة على الأسئلة الكبرى الملحة التي تهم



التنمية، والاستعداد لها، ويعتمد الأمل والتفاؤل والطموح، ووضوح الرؤية والشغف، والعلم والتخطيط والابتكار والإبداع، واستشراف المستقبل رغبة أصيلة لدى الإنسان، فقد كان يحاول دائما معرفة المستقبل بوسائله البسيطة قديما، إلى أن أصبحت رؤية المستقبل والتنبؤ به أمرا علميا مبنيا على وسائل وأساليب تدرس في «علم المستقبليات».

منذ تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة على يد مؤسسها كان التخطيط للمستقبل دائما حاضرا في كافة المشاريع والرؤى، وكانت هناك دائما مبادرات في هذه الاتجاه إلى إطلاق الانطلاقة الكبرى التي نعيشها اليوم مبادرة (عام الاستعداد للخمسين).

في القرآن الكريم معالم رصينة لتصميم المستقبل وفتح آفاقه، فقوله تعالى مثلا: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^١ قاعدة تستوعب المستقبل وكل ما سيستجد والعمل على استشرافه.

وفي سورة الكهف قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر وتعليمه كيفية التعامل مع المستقبل وفهمه واستشرافه في قصة الجدار والغلام، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا﴾^٢، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾^٣.

وفي سورة الكهف أيضا قصة ذي القرنين التي هي رمز لتصميم المستقبل، حيث يتم التعاون لإنشاء مشروع ضخم يقي من الأخطار المستقبلية، ببناء السد الحائل بين السكان والعباثين المفسدين في

١ - سورة الحجر، الآية: ٨.

٢ - سورة الكهف، الآية: ٨٠.

٣ - سورة الكهف، الآية: ٨٢.

٤ - سورة الكهف، الآية: ٩٨.

٥ - سورة الكهف، الآية: ١٠.



الأرض؛ لهذا قال ذو القرنين بعد بنائه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾^١
أي: نعمة من الله تعالى، فتصميم المستقبل والتوفيق في ذلك من
نعم الله على عباده؛ ولهذا تكرر هذا الدعاء في سورة الكهف:
﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^٢ أي: اجعل عاقبتنا رشداً.

قيم الاستعداد للخمسين:

الاستعداد للخمسين يبني على أربعة قيم رئيسة، أراها من أعظم
الأمر والقيم والوسائل التي بها نستطيع تطويق هذا الوباء..
وترابط هذه القيم واضح؛ لأنها ضرورة معيشية، وكل منها قد
احتفت به دولة الإمارات ورسخته في شعبها قبل الإعلان عن هذا
المشروع الكبير الذي هو ثمرة تلك القيم، فأول تلك القيم:

القيمة الأولى: قيمة العلم:

التسلح بالعلم والمعرفة أحد القيم الرواسخ، وقد كان الشيخ زايد
يقول: (إن تعليم الناس وتثقيفهم في حد ذاته ثروة كبيرة نعتز
بها، فالعلم ثروة ونحن نبني المستقبل على أساس علمي).
وأعظم القصص الدالة على عظمة هذه القيمة أول آية في القرآن
نزلت، ويمكن أن نقول: أول تكليف نزل، هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ
بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^١ وأول ما استقر النبي ﷺ بالمدينة المنورة
قاد جهداً معرفياً نادراً في تلك البيئة عملاً بالأمر الرباني الأول
الأمر بالقراءة، حتى انتشرت قيمة القراءة والتعليم في كل مكان
في المدينة المنورة، ففي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك،
قَالَ: {كَانَ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سَبْعِينَ رَجُلًا يُسَمُّونَ الْقُرَاءَ} قَالَ:
{كَانُوا يَكُونُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا أَمْسَوْا انْتَحَوْا نَاحِيَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ،

١ - سورة العلق، الآية: ١.

٢ - أخرجه الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك، رقم الحديث: ١٣٢٦٠.



فَيَتَذَرُّونَ وَيُصَلُّونَ يَحْسِبُ أَهْلُهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْسِبُ
أَهْلُ الْمَسْجِدِ أَنَّهُمْ عِنْدَ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى إِذَا كَانُوا فِي وَجْهِ الصُّبْحِ
اسْتَعَدُّوا مِنَ الْمَاءِ، وَاحْتَطَبُوا مِنَ الْحَطَبِ، فَجَاءُوا بِهِ فَأَسْنَدُوهُ إِلَى
حُجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ٢

ولنا في هذه القصة عبرة وهي أن:

- العلم والتعليم والإنتاج هي أعمدة التنمية، هؤلاء الشباب
جمعوا بين الجد في التعليم، ونفع الناس، وبناء أوطانهم، وتحقيق
الإنجاز لأهلهم ومجتمعهم، كأنهم أسسوا مدرسة وجامعة يسهرون
لتنقيح العلوم، وتدارس المعارف، لنفع المجتمع.

- ومن أهم المهارات التي ننال بها العلم ونطور بها قدراتنا
ونستعد للمستقبل، جعل القراءة عادة وهواية لنا، فهي إحدى
وسائل اكتساب العلم والمعرفة.

- القراءة هي التي تصنع القادة والأبطال والمستقبل، يُروى عن
فولتير أنه قال: سئلت عمن سيقود الجنس البشري؟ فأجبت:
الذين يعرفون كيف يقرؤون، وحق لنا في محاضرتنا هذه أن نقول:
الذين يعرفون كيف يقرؤون هم من سينقذون العالم من جائحة
كورونا.

- الجميع يشترك في مسؤولية بناء مجتمع المعرفة وتعويد الشباب
على القراءة والتعلم، وعلى رأس ذلك: الأسر، والمجتمع، والمؤسسات
التعليمية والثقافية، وجهود دولة الإمارات في هذا المجال جلية،
فقد خصت لهذه القيمة عاما كاملا بعنوان «عام القراءة».



القيمة الثانية: التسامح:

التسامح هو التعايش بين الشعوب بسلام ومحبة وتعاون، وكما أن هذه القيمة قيمة مركزية في دولة الإمارات فهي أيضا أساسية في تطويق هذا الوباء، فالعالم اليوم يتميز بالانفتاح والسرعة والاختلاط، فأصبح قرية واحدة، فإذا لم تكن هناك قيمة التسامح التي تعتمد على احترام الآخر واحترام دينه وجنسه وعرقه ومعتقده وشعائره، والنظر إليه كإنسان، فإنه لا يمكن إطلاقا تحقيق التعايش السلمي، فلا مفر من هذه القيمة من أجل تطويق هذا الوباء، وواقع دولة الإمارات شاهد على هذا، حيث يعيش على أرضها أكثر من مائتي جنسية .

إن الألفة الجامعة والمودة والمحبة ولين الجانب للناس من أهم صفات المؤمن المتشبع بالإنسانية، ومن تحققت فيه هذه الصفات فقد جمع صفات التسامح، ولهذا نجد النبي ﷺ يمدح الأشخاص وأيضا المجتمعات الذين استطاعوا أن يرتقوا بأنفسهم إلى هذه القيمة.

فمدحه للصفات الشخصية المتشعبة بهذه القيمة يبرز فيه في قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ} ١ ولنا في ذلك عبرة نجدها في:

- أهمية التسامح في تطويق الأوبئة؛ لأنه يقود إلى التصافي والتحاب والصدقة، وهو ضامن لتحقيق الآثار العائدة على المجتمع.
- الممارسة التسامحية ضرورة مجتمعية بالالتزام بالسلم والنأي عن العنف، ويستدعي هذا ضرورة التعارف مع الإنسان الآخر ومواساته، سواء الموافق أو المخالف، وهذا هو التطبيق العملي للتسامح.

١ - أخرجه الطبراني في معجمه الصغير، رقم الحديث: ٨٣٦.



- من أهم آثار التسامح تحقيق التعاون بين أفراد المجتمع: وبناء العلاقات مع الآخرين على قيم التفاهم؛ لأن مجال التسامح هو التنوع والاختلاف، ولا يمكن بناء أية علاقات سليمة دون الالتزام بنهج التسامح.

- مجتمع التسامح لا يستغني عن التواصل الحضاري بين الشعوب، فالتواصل الحضاري من ثمار التسامح، وبه يتحقق التعارف والتبادل العلمي والمعرفي والثقافي، وهو أحد أسس تطوير الأوبئة، ينبغي أن لا ينقطع التواصل الافتراضي في هذه الظروف، ينبغي أن يستمر ويستمر.

القيمة الثالثة: قيمة الخير:

نعم «إمارات الخير» و«زايد الخير» فالإمارات والخير لا يفترقان، فهي خير للإنسانية بعبائها، وخير لشعبها، كان عام الخير مشروعاً عظيماً لغرس هذه القيمة في المجتمع.

وقيمة الخير تحيلنا على «الخيرية» التي تعني بدورها التسابق في الأفضلية والخيرية، وتلك أمهات الأخلاق والفضائل، وبها يكتمل الإنسان الذي نعهده لمواجهة هذه الأوبئة.

وحتى ندرك محورية قيمة الخير في حياتنا، لنأمل هذه المقولة التي يقولها الناس: (فلان لا يرجى الخير منه)، هل هناك وصمة أكبر من هذه؟

إذا وصل الناس إلى القطع بهذه النتيجة، فقيمة الخير تعني أن تكون كلك خيراً للناس، خيراً لنفسك، خيراً لأسرتك، خيراً لوطنك، خيراً لمجتمعك، وقف النبي ﷺ مرة على الصحابة فسألهم سؤالاً عجبياً وعظيماً..





عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على أناس جلوس فقال: {ألا أخبركم بخيركم من شركم؟}، قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرّات، فقال رجل: بلى يا رسول الله! أخبرنا بخيرنا من شركنا. قال: {خيركم من يرجى خيره ويؤمن شرّه، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شرّه}.^١

ولنا في هذا الحديث عبرة.

- فمقتضاه أن كل إنسان فيه خير، وإنما ينبغي أن يتربى عليه ويُفعلّه، وشهر رمضان مناسبة دائمة لتحريك هذه القيمة.

- الخير بمعناه القريب يتمثل في مساعدة الناس، وتقديم العون لكل إنسان، والتركيز على مبدأ التكافل والتضامن والعمل الإنساني والأبعاد الاجتماعية.

- هذه القيمة تجعلنا نوطد العلاقات مع الآخرين، سواء مع أبناء المجتمع الواحد من الجيران ومن يجمعنا معهم وطن واحد، أو مع الدول الأخرى، وهذا يعبر عن القيم الإنسانية والقيم الدينية أيضا.

- أعظم ما تقتضيه قيمة الخير أن نكون إيجابيين مبدعين متفانين في خدمة أوطاننا ورفع سمعتها، وبالتالي نقدم خدمات للإنسانية جمعاء، وبذلك نجعل دولتنا محورا للعالم وقوة ناعمة، وذلك من الأسس العظيمة التي نطوّق بها هذا الوفاء.

القيمة الرابعة: قيمة حب الوطن (عام زايد):

من أهم الدوافع للتألق والنجاح: المواطنة الصادقة، وقد احتفت

١ - أخرجه الإمام احمد: مسند أبي هريرة، رقم الحديث: ٨٧٥٧.

دولة الإمارات بعام زايد، وهذا العام يمثل لنا دعوة وشعارا يعبر عن إرث دولة الإمارات، ورموزها وعاداتها وتقاليدها، الذي ينبغي أن نحبه وأن نزرعه في أجيالنا ونضحى من أجله، فكما يقول الشيخ زايد: (من ليس له ماضٍ، ليس له حاضر ولا مستقبل)، فمواجهة هذا الوباء بقوة أعظم إنما ينطلق من الاعتزاز بماضينا العريق وأمجادنا، وهو الذي يدفعنا لصناعة مستقبل مشرق، وخير إرث يستحق أن يكون نموذجا لتجاوز هذه الأزمات وتطوير الوباء هو إرث والدنا الشيخ زايد طيب الله ثراه.

وأذكر هنا أن هناك رسالة شهيرة وجهها بابا الفاتيكان لشعب دولة الإمارات قبل زيارته التاريخية لهذه الدولة، واللافت للنظر في هذه الرسالة أنه ركز على صفة في شعب دولة الإمارات، واستدل عليها بكلام الشيخ زايد حين قال البابا في رسالته: (يَسْرُّني أن ألتقي شعباً يعيش الحاضر ونظيره يتطلع إلى المستقبل، لقد صدق طيب الذكر الشيخ زايد مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة حين قال: (إن الثروة الحقيقية ليست في الإمكانيات المادية وحدها، وإنما الثروة الحقيقية للأمة تكمن في أفراد شعبها الذين يصنعون مستقبلهم، الثروة الحقيقية هي ثروة الرجال)).

فصناعة المستقبل -إخواني طلبة العلم- من القيم الأساسية التي ورثناها، والذين يقومون بهذه المهمة هم الرجال الذين يطورون قدراتهم ويتكيفون مع واقعهم. من الأسس المهمة في رؤية الشيخ زايد ودولة الإمارات وقصة نجاحها أنها استشرافية، فهي تتجاوز محددات المكان والزمان، تعتنق الماضي والتراث العريق للأجداد والتقاليد العربية الأصيلة، وتتفاعل مع الواقع لاستيعابه وإيجاد الحلول المناسبة له، وتستشرف المستقبل.



الاستعداد للخمسين في ظل هذا الوباء يعني الريادة الحضارية،
ولتحقيق الاستباقية في هذه الريادة لا بد من صناعة إنسان منفتح
واعٍ مبدع متسامح، يتقبل الآخر وينفتح على العالم وعلى الثقافات
الأخرى، وهو الثروة الحقيقية التي طالما نادى بها الشيخ زايد
طيب الله ثراه، فبقيم العلم والقراءة والخير والإحسان والتعاون
والتسامح وإرث الشيخ زايد طيب الله ثراه نستطيع كطلبة
علم وكمجتمع إماراتي بمواطنيه ومقيميّه أن نتجاوز هذه الأوبئة،
ونتخطى هذا الظرف بدراية أكبر، وقوة أعظم..
نسأل الله تعالى التوفيق والسداد لنا ولكم جميعًا.. والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته.



فقه العدوى في الشريعة الإسلامية

د. محمد البخاري

أستاذ الفقه والاقتصاد الإسلامي
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

تمهيد:

إن قضايا الناس متعددة ومتكاثرة، يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، بل دقيقة بعد دقيقة، ولا يمكن للمتناهي أن يحكم غير المتناهي إلا بالاجتهاد.

ومن القضايا المستجدة التي تحتاج إلى الاجتهاد وأربكت العالم وحاصرته ماديًا ونفسيًا، وأتت على الأرواح والتجارة والحضارة، ما يسمى اليوم بكوفيد ١٩ (كورونا) فأخذ الناس يتساءلون عن أحكام نقل العدوى من شخص إلى آخر بصفة عامة.

فأحببت أن أوظّر هذا البحث بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.





أقول وبالله نستعين: إن المنهج النبوي يقتضي الصبر في الأحوال كلها، خيرها وشرها، سواء توافق مع هوى النفس أو خالفه، مصداقا لحديث رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: {عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ}.^١

لذا، كان لزاما بعد هذا القدر الجارف، الالتزام بواجب الطاعة لما قرره القيادة الرشيدة من التزام بمقتضى النظام العام للحجر الصحي الضروري تجنباً للعدوى أخذاً وإعطاء؛ تحقيقاً للدين وعملاً بمقاصد الشريعة.

فالدينُ أمر الناس بالاستشفاء والتطبيب؛ حفاظاً على النفوس والعقول وما يتبع ذلك، ومن أنجع أسباب العلاج المؤدية للشفاء في مثل هذه الظروف: الحجر الصحي؛ لذا كان واجبا على الناس وجوبا قطعيا الالتزام بالتعليمات التي تصدرها القيادة الرشيدة، وعدم خرق حالة الطوارئ حفاظاً على النفوس؛ حتى لا نقع في المحذور لا قدر الله، وتعميقا لمفهوم الإنسانية جمعاء.

لذلك، فإن الالتزام بالحجر الصحي في مثل هذه الحال واجب يثاب على فعله، ويعاقب على تركه، هذا على وجه الإجمال.

أما من حيث البيان والتفصيل، فالأمر أشد وأصعب؛ وأعني بذلك -لا قدر الله- إن تسبب المريض بكورونا ولم يلتزم بالحجر الصحي، فإن أحكاما جديدة ستتعلق به، منها على سبيل المثال: أنه قد يكون قاتلا قتلًا خطأ، وهذا يستوجب الكفارة والدية على العاقلة، أما إن تعمد قتل الآخر بكورونا، فهو قاتل قتلًا عمدا، يستوجب العقوبة

١ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الرُّهُدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ الْمُؤْمِنِ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، رقم الحديث: ٢٩٩٩.

اللازمة، وهذا ما نقصد إلى بيانه في هذه المحاضرة، حتى لا نوذي ولا نقتل ولا نعدى الناس.

كل هذه الأحكام تشهد لها الأدلة الآتية:

أولاً: القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^١، ووجه الاستدلال بالآية أن: ﴿تُلْقُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وهو يفيد العموم.

والتهلكة عامة، والقاعدة أن العام يجري على عمومته، ومن هذا العام المنهي عنه والداخل في عموم الآية: خرق الحجر الصحي، وعدم الالتزام بالضوابط المرعية الشرعية.

ثانياً: من السنة النبوية الشريفة: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، بَعْدُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {لَا يُورَدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ}.^٢

وكذلك حديث أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: {فِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ}.^٣

وحديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: {إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ (الطاعون) بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ}.^٤

ووجه الاستدلال بالحديث: {لا تقدموا} فعل مضارع مجزوم بلا الناهية يفيد العموم، ومن هذا العموم: عدم الخروج من أرض الطاعون أو الدخول إليها.

١ - سورة البقرة، الآية: ١٩٥

٢ - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم الحديث: ٥٧٧١.

٣ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٩٧٢٢.

٤ - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: ١٧٩١.





ومن هذا العموم وباء كورونا الذي استوجب الحجر الصحي، والعلّة في هذا النهي هي إيقاع العدوى أو بعبارة أخرى مظنة العدوى، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في قصة رجوعه من طريق الشام لما بلغه أن الطاعون بها، فعن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان يسرع لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلّفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقيّة الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نرى أن تقدّمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واخلّفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يخلّف منهم عليه رجلاً، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدّمهم على هذا الوباء، فتأدى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متعيباً في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدّموا

١ - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: ١٧٩١.

عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ}.
قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عَمْرٌ ثُمَّ انْصَرَفَ.^١

فمقتضى هذا الحديث بمنطوقه ومفهومه أن الالتزام بالحجر الصحي واجب شرعي لا يجوز لأحد أن يخالفه، ومن خالفه يتحمل العقوبة الشرعية، ويدخل في عموم الحديث الذي رواه جابر وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: {الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُونَ، كَالْفَارِّ مِنَ الرَّحْفِ، وَالصَّابِرُ فِيهِ، كَالصَّابِرِ فِي الرَّحْفِ}.^١

ثالثا: القاعدة الأصولية: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

وجه الاستدلال بهذه القاعدة: أن الشفاء الواجب لا يمكن تحقيقه والتمكّن منه إلا بالحجر الصحي؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فعدم امتثالنا لتعاليم ديننا الحنيف وإرشاداته في كل ما يتعلق بالنظافة والاحتياطات الصحية اللازمة، يؤدي إلى محاذير شرعية، وإن من إرشادات الشريعة التأكيد على العناية بالنظافة، ولا عجب أن يكون الباب الأول في الفقه الإسلامي هو باب الطهارة، التي تعد شرطاً في قبول الصلاة، والمدخل الأول إلى العبادة، وما جاء في ذلك من أحكام الغسل، وتشريع الوضوء للصلاة بتنظيف الأعضاء الظاهرة من الجسم، والحث على نظافة اليدين قبل الطعام وبعده، وعند الاستيقاظ من النوم والترغيب في السواك، وما جاء في السنة من الأخذ بخصال الفطرة، وحفظ الطعام عن التغير والتلوّث.

١ - رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث: ١٤٤٧٨

٢ - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة باب تغطية الإناء، رقم الحديث: ٥٦٢١.





ومن الأحاديث الشريفة التي تنص على ذلك: حديث {وَأَوْكُوا قَرَبَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمَّرُوا - أي غطوا- آيَتَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرَضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفَأُوا مَصَابِيحَكُمْ}.^٢

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: {عَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لَا يُمَرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ}.^١

إن في هذا الحديث من الإعجاز العلمي ما في قوله ﷺ: {إن في السنة ليلة ينزل فيها وباء}، وهذا ما نشاهده حالياً حيث تحدثت بعض الأوبئة في مواسم معينة من السنة، وربما تحدثت بعض الأوبئة في دورات معينة من السنين، وهذا ما لحظناه أخيراً في داء الانفلونزا، وكذلك بعض الفيروسات الموسمية والفصلية، وعلى رأسها كوفيد ١٩ المسمى بكورونا.

وكل هذه التعليمات الصحية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الغرض منها جعل النظافة سلوكاً عاماً يلتزم به الإنسان في حياته، ولا شك أن لها أثراً كبيراً في الوقاية من الأمراض، وهو ما تدعو إليه الدوائر الطبية الوطنية، والمؤمن عندما يلتزم بهذه التوجيهات والإرشادات الدينية والطبية إنما هو في الوقت ذاته يطبق ما ينفعه صحياً ويمارس عملاً عبادياً.

رابعاً: درء المفسد مقدم على جلب المصالح: قد يبدو لنا الخروج والحرية المطلقة مصلحة، إلا أن هذه المصلحة تقابلها مفسد عظمى، منها إزهاق النفوس والعقول وضياع الأموال... جاء في

١ - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيذاء السقاء، رقم الحديث: ٢٠١٤.

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه، رقم الحديث: ٢٣٣١.

صحيح مسلم من حديث عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: كَانَ فِي
وَفِدِ تَقِيْفٍ رَجُلٌ مَجْدُومٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ: {إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ
فَارْجِعْ}.^٢

لقد منح الإسلام ثواب المُرَابِط لمن التزم بالحجر الصحي فأقام
والتزم، ومنحه ثواب الشهادة إن مات مُتَمَسِكًا بتعاليم الإسلام
الصّحية، وجعل عقوبة المُتَهَرِّبِ منها كعقوبة الفار من الزحف؛
فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: {لا تَفْنَى أُمَّتِي إِلَّا
بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونَ، قُلْتُ: يارسولَ الله إنَّ هذا الطَّعْنُ قد عرفناه
فما الطَّاعُونَ؟ قال غُدَّةٌ كُغْدَةُ البعير، المُقِيمُ فيها كالشَّهيد،
والفار منها كالفار من الزحف}.^١

وفي موطأ الإمام مالك من حديث سُمي عن أبي صالح عن أبي هريرة
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: {الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ،
وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ}.^٣

وكذلك حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: {سألت رسول الله ﷺ عن
الطَّاعُونَ، فأخبرني أَنَّهُ كَانَ عَدَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ
اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقْعُ الطَّاعُونَ، فَيَمْكُتُ فِي
بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ
مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ}.^٣

إنَّ الحجرَ الصّحي من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية،
وكما ذكرنا فإن الأحاديث النبوية السابقة قد حددت مبادئ الحجر
الصّحي بشكل يدعو إلى الإعجاز في زمن لم يكن فيه الطب ولا علماء

١ - أخرجه أحمد في مسنده رقم الحديث: ١٩٥٢٨.

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه: باب الإمارة، باب بيان الشهداء، رقم الحديث: ١٣٥٣.

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب، باب أجر الصابر في الطاعون، رقم الحديث: ٥٤٣٧.





الغرب يُدركون أبسط معاني العدوى، ولم يكن عندهم أبسط وأدنى المعلومات عن الأمراض المعدية، ولم يُعرف مبدأ العزل الصحي ومبدأ الحجر الصحي إلا في السنوات الأخيرة.

خامساً: من الضروريات الخمس حفظ النفس، فبالنفس يحفظ الدين، ويمكّن له وبه تتحقق الحياة، ويقع التكاثر والتناسل، وبه يقع العمران، وهذا هو المقصد الثاني من مقاصد الشريعة الإسلامية الكبرى.

ومن هذه المقاصد أن يحافظ المسلم على نفسه من الضرر ومنعه من إيقاع الضرر بغيره، وقد جاء في الحديث النبوي قوله عليه السلام الذي يضع قاعدة عامة للأحكام الشرعية: {لا ضرر ولا ضرار}، وفي شرح الموطأ: (الضرر هو ما لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة، والضرار ما ليس فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة).

ومعنى ذلك -والله أعلم- أن الضرر ما قصد الإنسان به منفعة نفسه وكان فيه ضرر على غيره، وأن الضرار ما قصد به الإضرار لغيره.

ومن تعاليم الشريعة الإسلامية في التصدي لوباء كورونا أيضاً: حث الناس على أن يلتزموا بالتعليمات الصحية التي تصدرها الجهات الرسمية، حفاظاً على الأنفس، وكذلك ترسيخ مفهوم المواطنة والمسؤولية الجماعية لمواجهة هذا الوباء، الذي أكدته حديث السفينة، وهو قول النبي ﷺ: {مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ

١ - رواه مالك في الموطأ، كتاب الأفضية، باب القضاء في المرفق.

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشركات، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم الحديث: ٢٤٩١.

الْمَاءِ مَرُّوا عَلَيَّ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا حَرْقًا
وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ
أَخَذُوا عَلَيَّ أَيْدِيَهُمْ نَجَوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا}.^٢

فكل يواجه من موقعه وقدرته، فعلى الطبيب والممرض أن يقوم
بواجبه في علاج المرضى، وعلى الباحث أن يجتهد في الكشف عن
الأدوية واللقاحات، وعلى كل فرد في المجتمع أن يساعد العاجزين
ويسد حاجات الناس.

وبناء على الحديث السابق الداعي إلى تضافر الجهود أعلنت
القيادة الرشيدة حزمة من القرارات الداعية إلى التكافل والتضامن،
نذكر منها:

حملة ١٠ ملايين وجبة: في ١٩ أبريل ٢٠٢٠، أطلقت دولة
الإمارات حملة (١٠ ملايين وجبة) لدعم الأفراد والأسر المحتاجة
الأكثر تضرراً في الظروف الاستثنائية الناجمة عن تفشي فيروس
كورونا المستجد (كوفيد-١٩).

معا نحن بخير: تم إنشاء برنامج (معاً نحن بخير) لإعطاء المجتمع
فرصة للمشاركة في جهود حكومة أبوظبي في التصدي للتحديات
الصحية والاقتصادية المرتبطة بأزمة كوفيد-١٩.

يجمع البرنامج الذي أطلقتته هيئة المساهمات المجتمعية - معاً كافة
فئات المجتمع بما فيها الأفراد والشركات للتطوع بالمساهمات المالية
والعينية وتقديم الدعم للمجتمع.

جهود تطوعية أخرى: بالإضافة إلى ذلك، توفر المؤسسات والبرامج
والمبادرات التالية الكثير من أعمال التطوع التي تلبى احتياجات
المجتمع:



- الهلال الأحمر الإماراتي
- أكاديمية الإمارات للتطوع في أبوظبي
- البرنامج الوطني التطوعي لحالات الطوارئ والأزمات والكوارث
- برنامج دبي للتطوع
- تكاتف
- ساند
- كلنا شرطة
- صندوق الوطن
- معا نحن بخير
- نظام حاضنات التطوع

وختاماً: إن الفقه الإسلامي فقه حي صالح لكل زمان ومكان، ولكل مستجد، ولا غرابة أن أذكر هنا بفقه العدو المبني على الاحتياط. والقاعدة: أن ما كان للأحوط فهو واجب.

هذا فضلا عن قواعد الأخذ بالأسباب سواء كانت كونية أو ربانية، لأن الجمع بين الدليلين أولى من إهمال أحدهما، وهذا الواجب اليوم يشكل نقطة الفصل بين الموت والحياة والاستمرارية والعدم، فينبغي ألا يستهان بهذه العدو وخطورتها، لذلك فإن الحجر الصحي هو من أوجب الواجبات، هذا فضلا عن أحكام العدو بعد الوقوع وما يترتب عليها من عقوبات مادية ومعنوية، وأحكام الرخص، إلى غير ذلك، سلمنا الله وإياكم.



تحصيلُ غَرَضِ القاصِدِ في تفصيلِ المرضِ الوافِدِ

تصنيف: أحمد بن علي ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠هـ)
— ترجمة وتعريف ومقارنة —

د. رضوان الحصري

أستاذ الفقه وأصوله

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

مقدمة

الحمد لله الذي قَصَرَ عَن دَرَكِ قدره وحقائقِ كونه كُلِّ عاجِزٍ
مَشْدُوهِ، المحمود في كل حال على المحبوب والمكروه؛ والصلاة
والسلام على سيدنا محمد المُنْقَذِ مِنَ العُمُوهِ، وعلى آله وأصحابه
ومن تبعهم بإحسان إلى يومِ تَبَيَّضُ فيه وجوه.

أما بعد؛

فهذا تعريف معاصر بكتاب فريد في بابه، حريدٍ في ترتيبه، عجيبٍ
في فحَاويه وتقسيمه، صنفه عالم أندلسي لودعي، أمَحَصَ تخصصه
لعلوم اللسان العربي، لكنه أبدع في هذا التأليف إبداعاً، ورتع في
روضه البهيج رتاعاً، مع أنه ليس في تخصصه الدقيق، ولا هو فيه





من أهل التحقيق، وتلك صبغة العالم عندما يكون متفنا، فإنه لن يرضى لنفسه أن يكون خريتا في علم وفيما عداه متمرنا.

إنه كتاب تحصيل غرض القاصد، في تفصيل المرض الوافد، للشيخ الفقيه العالم العَلَم المتفنن الأبرع الأكمل، أحمدَ بن علي بن محمد بن علي ابن خاتمة الأنصاري، المتوفى رحمه الله سنة ٧٧٠هـ.

والداعي إلى التذكير بهذا الكتاب وجامعه والحال أن المناسبة شرط ما ألمَّ بالعالم لهذا الوقت من وباء منتشر، جاح أرجاء البسيطة طولاً وعرضاً، فأصبح الجم الغفير من الناس بسببه مرضى، وأضحى التحرز منه بالوقاية والعلاج لازماً على الجميع وأمرأ فرضاً، إنه الداء المُستجِدُّ المعروفُ بكوفيد ١٩ الذي استحال في حصد أرواح الناس السلاح الأمضى.

وهو دليل على أن العالم الفقيه الفطن ينبغي أن يكون من أبناء وقته، يساير أحواله، ويعيش زمانه، ويعرف واقعه كما يستشرف مستقبله، لا أن يكون في وادٍ؛ وجميعُ العالم الذي هو جزء منه في وادٍ، وإلا سار مسكينا مغرورا في أحلام المنام مغرباً، وسار ذو اليقظة في حقيقته مشرقاً؛ وشتان بين مُشرق ومُغرب.

وهذا ترتيب برنامج عملي في التنويه بهذا التصنيف وصاحبه:

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف.

المطلب الثاني: التعريف بالكتاب.

المطلب الثالث: مقارنة هذا الكتاب بنظائره مما ألف في بابهِ

فلنشرع في تفصيل مطالب هذه المحاضرة، فأقول وبالله التوفيق:

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف:

هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد ابن خاتمة الأنصاري، من أهل ألمرية، يعرف بابن خاتمة، كان هذا الرجل صدرا يشار إليه، طالبا متفتنا، مشاركا، قوي الإدراك، سديد النظر، قوي الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، بارع الخط، ممتع المجالسة، حسن الخلق، جميل العشرة، وكان حسنة من حسنات الأندلس، ناظما ناثرا، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد، وأخذ بطرق الإحسان، عقّد الشروط، وقعد للإقراء ببلده، مشكور السيرة، حميد الطريقة، في ذلك كله.^١

أخذ العلم عن شيوخ جلة، منهم ممن ذكر في بعض أثباته:

الشيخ الخطيب، علي بن محمد بن أبي العيش المرّي^٢، قرأ عليه ولازمه، وبه جلّ انتفاعه.

الشيخ الخطيب الأستاذ الصالح إبراهيم ابن أبي العاصي التّنوشي^٣.

الراوية المحدث المكثّر الرّحال، محمد بن جابر بن محمد ابن حسن الوادي آشي^٤.

ابن الحاجّ أبو البركات البلقيني^٥، سمع عليه الكثير، وأجازه إجازة عامّة.

الشيخ الخطيب عبد الرحمن بن محمد ابن شعيب القيسي^٦.

القاضي أحمد ابن فركون القرشي^٧.

١ - الإحاطة في أخبار غرناطة: ١٠٨/١، بتصرف.

٢ - له ترجمة في الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي: ٢٤٠/٣، رقم: ٥٧١.

٣ - له ترجمة في الإحاطة في أخبار غرناطة: ١٩٧/١.

٤ - صاحب البرنامج المشهور.

٥ - ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة: ٨٣/٢.

٦ - ترجمته في نيل الابتهاج للتنبكتي: ٢٤٤.

٧ - ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤٩/١.





الوزير الحاجّ الزاهد محمد بن محمد بن سهل بن مالك
الغرناطي.^١

المقريّ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف الكلاعي الأغرّ.^٢
هؤلاء بعض مشيخته.

ولما استوى في العلم ساقه كثر صحبه لأخذ العلم من معين طبعه،
ومنهم ممن تتلمذ له:

علي بن لسان الدين أبو الحسن ابن الخطيب السلماني،^٣ وقد
ذكر قصيدة لابن خاتمة قال: سمعتها من لفظ شيخي ابن خاتمة
بالمرية في سنة خمس وستين وسبعمائة، قاله علي بن الخطيب.^٤
ومنهم أخوه محمد بن علي بن محمد ابن خاتمة الأنصاري، تأدل
به وتهذب.^٥

وترك ابن خاتمة تصانيف بديعة دلت على علو كعبه في مختلف
الفنون، ومنها:

كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية؛ قال المقري: في
مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب، والله سبحانه المسؤول
في جمع الشمل، فله الأمر من بعد ومن قبل.^٦

١ - ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري: ٢٤٠/٢.

٢ - ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري: ٧٢/١.

٣ - ترجمته نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣٣٩/٧.

٤ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢٧/٧.

٥ - ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٤٥/٢.

٦ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٦٣/١.

ومنها كتاب إحقاق العقل بالحس في الفرق بين الجنس وعلم الجنس.^١

ومنها كتاب رائق التحلية في فائق التورية.^٢

ومنها كتاب إيراد اللآل، من إنشاد الضوال وإرشاد السؤال.^٣
ومنها ديوان شعره.

ومنها رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل.^٤

وكلها مطبوعة ما عدا كتاب مزية ألمرية، وكتاب إحقاق العقل بالحس.

تُوفِّي ابن خاتمة رحمه الله فيما ذكره الحضرمي في سابع شعبان عام سبعين وسبعمائة، عن نحو ستين عامًا.^٥

وقال ابن الخطيب: وهو الآن ب قيد الحياة، وذلك ثاني عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة،^٦ والراجح ما ذكره الحضرمي؛ لأن تاريخ الوفاة عنده مضبوط، ولعل ابن الخطيب لم تبلغه وفاته زمن الكتابة ل بعد الشقة، ولأن المثبت مقدم على النافي، وإثبات الحياة نفي للوفاة.

١ - نيل الابتهاج: ٩٣.

٢ - نشر بتحقيق: محمد رضوان الداية، بدار الحكمة، دمشق.

٣ - نشر بتحقيق: بدر العمراني، دار ابن حزم، بيروت.

٤ - نشر مع ديوانه شعره؛ بتحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت.

٥ - نيل الابتهاج: ٩٣.

٦ - الإحاطة في أخبار غرناطة: ١٢٥/١.



المطلب الثاني : التعريف بالكتاب:

اعتمدت في التعريف بهذا الكتاب^١ على نسخة مغربية محفوظة بدير الإسكوريال بمدريد، ضمن مجموع برقم: ١٧٨٥، وهي نسخة واضحة، عليها علائم المقابلة والتصحيح والضبط، عدد أوراقها: ٥٧. ورأيت أن أجعل هذا التعريف قائماً على هذه الأسس:

أولاً: سبب التأليف:

ارتباط المؤلف بواقعه مع إلحاح أودائه جعله يكتب في هذه الكائنة التي حلت بهم في ذلك الزمان؛ وذلك قوله بعد الإهلال بحمد ذي الجلال، والصلاة والسلام على منقذ البشرية من الضلال: «وبعد فإن بعض أصدقائي ممن يتعين علي إسعافهم، ولا يسعني خلافهم؛ سألوني عن حقيقة هذا [الوباء] الظاهر بألمرية بتاريخ عام تسعة وأربعين وسبعمائة، والتعريف به بحسب القول الطبي، وعن سببه العام والخاص».

ثانياً: مسائل الكتاب وفصوله:

كسر المؤلف عمودَ هذا الكتاب على عشر مسائل كاملة، وهي:

المسألة الأولى: في حقيقة الوباء، وحصرها في فصلين:

ففي الفصل الأول: ذكر التعريف به على العموم، وهو ينقسم قسمين:

القسم الأول: في معناه لغة، ومما قاله هنا: «وأما الوباء فقال

١ - طبع هذا الكتاب مرتين، إحداهما ضمن كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية لمحمد العربي الخطابي، والثانية ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، ببيت الحكمة، تونس، تحقيق د. محمد حسن، كما سبق إلى التعريف به محمود كرد علي في مقالة نشرت في المجلد السابع عشر من مجلة المجمع العلمي العربي، ١٩٤٢م.



الجوهرية: هو مرض عام، ويمد ويقصر، وجمع المقصور أوباء، وجمع الممدود أوبئة، وقد وُبِّتَت الأرض تُوباً، فهي موبوءة إذا كثُر مرضها»^١.

وأما القسم الثاني: ففي معناه بحسب القول الطبي، ومما أفاده هنا قوله: «ولنرسمه بأنه مرض عام للناس قَتَّال غالباً عن سبب مشترك». ثم شرح هذا التعريف، ثم قال: «وهذا النوع من المرض هو أحد نوعي المرض التي سماها أبقراط بالأمراض الوافدة؛ قال جالينوس: وهي الأمراض التي تعم كثيراً من الناس في وقت واحد، فمتى كانت مُهلكة سميت مُوتاناً، ومتى كانت سهلة سميت بالمرض الوافد، ومتى كانت خاصة ببلد دون بلد سميت الأمراض البلدية... وإنما سميت أمراضاً وافدةً لأمرين: أحدهما أنها قادمة على الناس من بُعد مع الهواء، ليست من جهة مطعوم ولا مشروب، ولا عرض نفسي وشبه ذلك،... الثاني: أنها أمراض عامة تشمل الكثير من الناس كما أن الوباء هم الجماعة»^٢.

وفي الفصل الثاني ذكر التعريف بالوباء على الخصوص، وذلك بحسب هذا المرض الحادث ببلده وأمثاله.

المسألة الثانية: خصها ببيان أسباب الوباء العامة والخاصة وحصَرَ الكلام فيها في فصلين:

ففي الفصل الأول ذكر سببه العام، وهو ينقسم قسمين:

في القسم الأول ذكر سببه القريب، وهو تغير الهواء المحيط بالإنسان الذي يتنفس فيه.

١ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ٥٠/ب).

٢ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ٥١/أ).





وفي القسم الثاني شرح سببه البعيد، وهو على أنواع:

النوع الأول: تغير الهواء من جهة اتصال الأشعة الفلكية والأنوار السماوية.

النوع الثاني: تغير الهواء من جهة الزمان والوقت وما يتعلق به من غزارة المطر وقلته أو عدمه وهبوب الرياح وركودها.

النوع الثالث: تغير الهواء من جهة المكان والموضع وما يتصل به.

وأما الفصل الثاني فقد بين فيه سبب هذا الوباء الخاص، ومما قال هنا: «وقد كان ظهوره بألمرية في أول شهر ربيع الأول من عام تسعة وأربعين وسبعمئة بموافقة أول شهر يونيو، فاستمر تمام فصل الربيع، وجميع فصلي الصيف والخريف، وطائفة من فصل الشتاء إلى تاريخ كتب هذا، وهو منتصف ذي قعدة بموافقة أوائل شهر فبراير، وإلى الآن لم يقلع، لكن شمائل لطف الله بادية، وتباشير رحمته ظاهرة، تدارك الله تعالى بعاجل كرمه وسابغ نعمه إنه منعم كريم لا رب سواه»^١

ثم قال: «فقد بلغنا على السنة الثقات أنه هلك في يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة، وتلمسان سبع مئة نسمة ونييف؛ وأنه هلك ببلنسية ألف نسمة وخمسمئة نسمة؛ وهلك بجزيرة ميورقة ألف نسمة ومائتا نسمة... وكذلك كان الأمر بسائر البلاد صغيرها وكبيرها على ما تأدى إلينا والحمد لله على ما أولى من رفقته ومنّ به من لطفه سبحانه»^٢.

١ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ٥٧/ب).

٢ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ١/٥٨).

المسألة الثالثة: أجاب فيها عن سؤال وجيه، وهو: ما باله خص قوما دون آخرين على قرب الجوار؟

المسألة الرابعة: شرح فيها ما ظهر من عدواه، ومما قال هنا: «الظاهر الذي لا خفاء به، ولا غطاء عليه أن هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره، شهدت بذلك العادة وأحكمته التجربة، فما من صحيح يلبس مريضا ويطيل ملابسته في هذا الحادث إلا ويتطرق إليه إذايته، ويصيبه مثل مرضه عادة غالبية أجزاها الله تعالى، والفعل في الأول والثاني للحق جل جلاله»^١.

المسألة الخامسة: شرح فيها كيفية التحفظ والاحتراز منه، قال: «فينبغي أن يمال إلى السكون ما ساعد الإمكان على ذلك،...والإكثار من استنشاق الهواء المتغير يغير لا محالة...وأما الجنس السادس وهي الأعراض النفسانية فأصلحها التعرض للمسرات والأفراح وبسط النفس وانسراح الصدر وامتداد الآمال، فليستدع ذلك بما أمكن من ذلك من الأمور المباحة ومجالسة من تلهج النفس بحديثه ويتصرف الفكر إليه ولا جليس أنس من كتاب الله عز وجل»^٢.

المسألة السادسة: أجاب فيها عن سؤال، وهو: ما علاجه إذا نزل، وكسرهما على فصلين:

ذكر في الفصل الأول علاج هذا المرض لأول انتشاره قبل تمكنه واستحكامه. وفي الفصل الثاني علاجه بعد تمكنه واستحكامه.

المسألة السابعة: جمع فيها ما جاء عن الشارع في الوباء صلوات الله وسلامه عليه.

١ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ٦٤/أ).

٢ - تحصيل غرض القاصد (لوحة ٦٦/أ).





المسألة الثامنة: شرح فيها معنى حديث النهي عن القدوم على أرضه أو الخروج عنها.

المسألة التاسعة: شرح فيها معنى قوله عليه السلام: {لا عدوى ولا طيرة}.

المسألة العاشرة: جمع فيها بين قوله عليه السلام: {لا عدوى}، وحديث النهي عن القدوم على أرض الطاعون أو الخروج عنها فرارا منها.

هذه مسائل الكتاب.

وأما خاتمته فكانت دعاء وتوجهها إلى الله، ولا خير إلا في الالتجاء إلى الله عز وجل، أول الأمر وآخره، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وذلك ما فعله المؤلف حين قال رحمه الله: «فرج الله تعالى عن المسلمين ما هم فيه من أليم كربه، وعظيم خطبه، بجاه العظيم الجاه، سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان وتابعي التابعين والحمد لله رب العالمين»¹.

المطلب الثالث: مقارنة هذا الكتاب بنظائره مما أُلّف في باب

هذا نبذ موجز في التعريف بكتاب ابن خاتمة هذا، ولم يكن هو الوحيد في معالجة هذه النازلة عندما وقعت في زمانهم، فقد تصدى للكلام عليها غيره، ولما أشار علي أستاذنا الفاضل سعادة الدكتور خالد سالم الظاهري مدير الجامعة عند تفضله بمراجعة ما كتبتُه والنظر فيه، بضرورة عقد مقارنة بين كتاب ابن خاتمة وما

1 - تحصيل غرض القاصد (لوحة 105/ب).

ألفه غيره مما يدور في فلكه، رأيت أن أختم هذه المحاضرة بإبداء أوجه الاتفاق والاختلاف بين كتاب ابن خاتمة، وثلاثة كتب أخرى في الموضوع نفسه، والنازلة عينها، وهذه الكتب الثلاثة هي: كتاب مَقْنَعَة السائل عن المرض الهائل، لذي الوزارتين لسان الدين محمد ابن الخطيب الغرناطي (ت: ٧٧٦هـ).

كتاب تقييد النصيحة في الوباء، لمحمد بن علي اللخمي الشقوري (بعد ٧٤٩هـ).^١

كتاب وصية الناصح الأودّ في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد لأبي عمرو محمد بن محمد ابن منظور القيسي (بعد ٨٧٧هـ).^٢

فأما كتاب المقنعة لذي الوزارتين، فلم يستفتح صاحبه بخطبة ولم يذكر سبب تأليفه كما صنع ابن خاتمة، وهو مقالة مختصرة غايةً سبكها لسان الدين كعادته وهو الأديب المنطيق في قالب لساني بديع، دون أن يقسمها أو يرتب مسائلها، وإنما جمعها دفعة واحدة، كلما انتهى من ذكر شيء انتقل إلى غيره، دون الفصل بما جرت العادة به من المباحث والمطالب والفصول.

وقد استفتح ابن الخطيب مقالته بقوله: «لما كان الحكم على الشيء فرعاً عن تصويره وجب أن نبين حقيقة هذا المرض»، ثم بينه، وذكر سببه، وأعراضه، وعلاجه، وحال أمره في بدن الإنسان، ثم انتقل بعد ذلك إلى الجواب عن سؤال كثيراً ما يعرضُ مثله وهو: «كيف نُسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك؟»،

١ - كتاب مقنعة السائل وتقييد النصيحة يوجدان في المجموع نفسه الذي اعتمدت نسخته في التعريف بتحصيل غرض القاصد.

٢ - أصل هذا المخطوط من خزانة العلامة محمد المنوني رحمه الله.





ثم أجاب عنه جوابا طويلا بدأه بقوله: «قد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة وهذه مواد البرهان»، ثم استتبع قائلا: «ومن الأصول التي لا تجهل أن الدليل السمعي إذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تأويله، والحق في هذا تأويله بما ذهب إليه طائفة ممن أثبت القول بالعدوى، وفي الشرع مؤنسات عديدة، كقوله: {لا يورد ممرض على مصح}، وقول صاحب: (أفر من قدر الله إلى قدره)».^١

وفي أثناء جوابه هذا ذكر مصدر هذا الوباء الذي قَدِمَ إلى الأندلس؛ فقال: «هذا الواقع ابتداءً بأرض الخطأ والصين في حدود عام أربعة وثلاثين وسبع مئة، حدث بذلك غير واحد ممن يوثق به من أولي الرحلة البعيدة والجولان، كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله ابن بطوطة وغيره».^٢

وأما كتاب تقييد النصيحة في الوباء لمحمد بن علي اللخمي الشقوري، فقد كان أشد اختصارا من مقنعة السائل لابن الخطيب، إلا أن مؤلفه تخصص في علوم الطب أكثر منه في علوم اللسان، بخلاف ابن خاتمة وابن الخطيب، ولذلك لم نجد في كتابه هذا شيئا من أفانين البلاغة والبيان كما وجدناه في التحصيل والمقنعة، ضرورة أن المؤلف غلبت عليه في الكتاب الصنعة الطبية المحضة، فكان لكتابه السبق من هذا الوجه.

غير أنه وإن كان طبيبا ماهرا لم يحد عن المنهج الإسلامي في تناوله للموضوع، فقد استهل بحمد الله والافتقار إليه والصلاة والسلام على رسوله؛ وذلك قوله رحمه الله: «الحمد لله رب العالمين

١ - مقنعة السائل (لوحة ٤٣/ب).

٢ - مقنعة السائل (لوحة ٤٤/أ).

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله
وصحبه وسلم تسليماً»^١.

ثم ذكر حديث الدين النصيحة، وأن من سننه ﷺ المحافظة
على الطب واستعمال العلاج، وأنه لا يخفى على ذي عقل شرفه
ومنفعته، ثم قال: «وإني رأيت في هذا العارض الوباء في نصيحة
لإخواننا المسلمين، جعلها الله خالصة لوجهه، ومقربة من رحمته
إنه ولي التوفيق»^٢.

ثم ذكر مقدمة بين يدي الكلام حقق فيها أن سبب هذا الوباء
فساد مبثوث في الهواء المتنفس فيه؛ ثم ذكر بعض ما يصلح
الهواء، ثم قال: «ولا ينبغي لأهل الجهل بالطب أن يتبعوا في ذلك
هوى نفوسهم، بل ينبغي الاقتداء بأهل الدين والفضل الذين هم
مصاييح الهدى والأئمة لمن بهم اقتدى... فمن علم أن الطب بهذه
المثابة فليستمع إلى هذه النصيحة بأذن واعية، فالقصد بها وجه
الله سبحانه والطمع في الدخول في عموم قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾»^٣.

ثم ذكر ما انحصر فيه الكلام في هذه النصيحة على ما يقتضيه
الاختصار، وذلك في فصلين وتنبية:

الفصل الأول: في إصلاح الهواء.

الفصل الثاني: في إصلاح الأبدان بالغذاء والدواء.

١ - تقييد النصيحة (لوحة ١٠٧/أ).

٢ - تقييد النصيحة (لوحة ١٠٧/أ).

٣ - تقييد النصيحة (لوحة ١٠٨/أ).



وأما التنبيه فخصه لبيان الأمور التي يمكن للإنسان أن يتخذها من غير نظر ولا مشورة طبيب، وهي كل ما هو داخل في باب الخواص.

ثم ختم كتابه بقوله: «هذا هو الكلام في هذه النصيحة على ما شرطته؛ وقد بسطت هذا بأوجز منه في تأليفي المسمى تحقيق النبأ عن أمر الوباء؛ فلنقطع الكلام خشية التطويل، ومن شذ له شيء أو أشكل عليه أمر فليَسأل وَيُيَسِّئْ له على أتم وجوهه بفضل الله وقوته والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى».^١

وأما كتاب وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد لمحمد بن أبي بكر بن منظور القيسي، فقد تفرد بتخصيصه فصلاً خاصاً بالأدعية والأذكار والأوراد التي تقال في زمان الوباء، وليس فيه من أمر الصناعة الطبية شيء إلا ما نقله مؤلفه عن كل من ابن خاتمة والشقوري، ثم إنه أيضاً بناه على الاختصار غير المخمل دون التطويل الممل، كما هي عبارته في المقدمة التي استفتحها ببراعة الاستهلال، فقال: «الحمد لله الرحيم المقييل، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الآتي بالمعجزات، ومنها القرآن العزيز أصدق كل قيل، والرضا عن آله وصحبه وعترته وحزبه الناقلين سنته بالحفظ الراسخ والذهن الصقييل».^٢

وهذه هي فصول الكتاب الثلاثة:

الفصل الأول: فيما يقرأ ويذكر، وتحمد عاقبته إن شاء الله ويشكر، ذكر في هذا الفصل ما ينبغي للمسلم فعله عند حلول المصائب

١ - تقييد النصيحة (لوحة ١١١/ب).

٢ - وصية الناصح الأود (لوحة ١/أ).



عليه كالوباء، من الإكثار من قراءة القرآن والصلاة والسلام على رسول الله، والفرع إلى الصلاة مكتوبها ومندوبها.

وفي الفصل الثاني ذكر وجه تدبير الإنسان على مذهب الأطباء والحكماء والأذكياء في المسكن والمأكل والملبس وغير ذلك مما يستعد به قبل نزول الداء.

ثم ختمه بقاعدة عظيمة في التوكل، وحرمة نبد اتخاذ الأسباب ظهريا، فقال: «تتميم وخاتمة»: ثم قال: «يا أيها الناظر في هذه الوصية، اعلم أنه لا ينبغي لك ولا لغيرك أن يفرط فيما أرشد له العباد من العلم والعمل الكفيلين بصلاحه الضمينين بفضل الله لنجاحه، ويقول: أتوكل، وكذلك لا ينبغي لك ولا لغيرك أن يفرط ويضيع ما هدى الله سبحانه إليه من العلم والعمل مما تكفل بصلاح الأخرى، ويؤخذ إلى التوكل نظرا لسابق العلم في الأمر»^١.
تلكم أيها السادة نبذة مُنجزة عن كتب أندلسية أربعة في الوباء، ولنا في كثير مما ورد فيها فوائد جماء، والتاريخ لا يعيد نفسه، وإنما تستدير فيه بعض حوادثه كهيتها أو أشدَّ في الدهر الغابر، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

حفظ الله دولة الإمارات العربية المتحدة قيادةً راشدة وشعبا وфия، وزادها تقدما ورقيا، وأسبغ عليها نعمة الأمن والسلم والحضارة والمجد، إنه عز شأنه كان بنا حفيا.

والحمد لله رب العالمين



(ملاحق)

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
والله اعلم بالصواب
فإن الشيخ الفقيه العالم العارف
المتبحر في كل فن
عالم في كل فن
الشيخ الفقيه العالم العارف
المتبحر في كل فن
عالم في كل فن



أول كتاب تحصيل غرض القاصد

أبو الوليد وأدخله من البرية إذ كان في دار فؤاد عليه السلام
أصبح بها جسون به البرية ليتبين ما يكون لها ما أن يقول على ما عرفت
بوالعلة بما جاءه بل أن يطرح الرغز بقية وأخر ما يجزئ منه متع
أخيراً أن البرق آثاره لا يبره ولا تعب والظاهر والباطن لا يتأخر عنه
هو الله العزيز الغفار، قال الربيع بن الله
وقد أتينا بحمد القوس من به أجزوية من العاقل بما يعان فيه اللانق
مفزع لثقله وتارة جود من قبل الكون على ما يقع به يكون لتبين
بجملته الرمايل وهو ما ناله الذي لا يبره حتى رجا الناصب كونه العاقل
ولما يله البطل به كما يخطأ من تفسيره، وتماثله كالمعنى زيادة لاجه
وكما يسهل تفسيره، جفته كلفه به من من العار كغيره من العاقل
الناظر في كماله كالمسترة وأبيرة من أنواره كالظان لظلمه للادمان
والفكر على تضييقه بل على كماله من فيه ج الذي تفرغ من التبين
تأخر به من البرية، وتعلمه كالبينة، بما به انقضى انما سياتر وما يخذ
وإليه وتجه طوعاً، والله وسلامه عليه أجمعين وهو في التبين لظلمه
قال الربيع بن الوليد والعبير
قال الربيع بن الوليد في فصل من فضل القاصد
به تبصير القاصد في العلم من علمه ما به العلم

آخر كتاب تحصيل غرض القاصد



التخلية
من أمثال الشعراء بمنفعة السائل
عزير خضر الناطق

تأليه الشيخ كاتع الرويس العالمة الكبير القيد التوجيه لنا
للبلاغة خيرة الوزراء تزلزلتان اليه ابو عبد الله عن ابن الخطيب
رحمة الله ورضي عنه وآرطاه

فإن قيل حجة تستدل بحق القزوي وفوز
الشرح ينفذ ذلك فلنا وقد ثبت رجوع ذلك
يا الشيخية و...
وهو...
أزاح...
وسلامته...
والعلم...



نقل من كتاب مقنعة السائل لابن الخطيب الغرناطي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 كتاب النصح للشيخ تقييد
 أبي عبد الله القاري
 أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشافعي
 النعم بالله وزي العليم، وحسبنا الله وبالله التوكيل
 ولعمرك أن قوة هذا القول على الخلق، وصلى الله على سيدنا
 وموينا محمد بن رسول الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم، فعليه
ع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس من
 الشجاعة، وإن من شجاعة من حمل الله تعالى، ونجم النجاة على ربه
 وامتنان العلاج، والتفكير في خلقه تعالى، وتفكيره في خلقه
 في هذا الغرض الوفا، به نجمة لا تحواننا العليم جعلنا الله
 خاصة لوجهه، وتكلم من رغبته، لأنه ولي التوفيق والنفع
 مفكرة ينزله في الكلام، **أبواب** من خلقه
 قنانه ممنوعه لعمارة التفتير، بل إننا من أيماننا بإصلاح

بداية كتاب تقييد النصيحة للشقوري



أين من زيارته كعبان ومن ذابح ما ذكره ابن زهير
 حواجه أنه إذا علقته وثلثة بين الذر زرع في أهل بيت
 لم يجب ترويض القامون ومن كتبا في ربه
 من العواجر إذا التمت حلفة مثل الخاتم من فصيله كما
 للثريد وتتم به من حصر الرجل الزرع به أو يتما وزرع
 و زرع فوم أن الزرع صفة إذا علقته على الأوزاع
 للزراعة خلقتنا وأنا أرى أن ربه به أفراح
 كما يجار الخالص الزرع مما يلقه غيره من أبقع الأشياء
 وأبلى منها في التبتلية كما يستلخ الأبقع الفرح رفوعه يد
 يا **هزل** هو اللعاب به من النسيجة على تاركه وقد
 جعلت من أزرجه من تاليه التمتي يفتنون الباقين أمر
 النوباء بلنكح اللعاب حشنة التطويل فمن شدة له شوي
 أن أشكل عليه أنه قليل مثل ويقتل على أتم وهو به بطل
 للثيد وقوته والعمود وسلاخ على معاد الزرع أخلكي
 بخير تفسير النسيجة معونة اللغو ونسيب اللعاب كما

نهاية كتاب تقييد النسيجة للشقوري

وامام الرسلين وعلى اله الكسبين الطاهرين البررة المنتخبين
واصحابه اجمعين صلاة تامة وسلاما كرميا في يوم الدين
وسلام على عباده الذين اصطفى

كملت الوصية المباركة والحمد لله تعالى كما يحب
لجلاله وصلى الله على سيدنا واولادنا محمد وعلى اله
على يد مغيرها النبوه في يوم الباقية المفضله سبحانه
بالواحرانية عبيد الله الضعيف الراجي عبوره الطيب
عليه فاني نزلت من اجل رحمة الله في انصاره نعم الله
ذو به وسقى في الدارين عبوه وذو المودة بلس
رحمته الله تعالى بعد الصلاة من يوم الجمعة التاسع لهن
من جماع مناعة وبلغت ما في ما به نعم الله خير
ومن امة السابح عشر من بوليه ولا يجمع
وصلى الله على سيدنا واولادنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليم



نهاية وصية الناصح الأود لابن منظور

الطب عند العرب والمسلمين: معالم في تاريخ النشأة والتطوير

د. أحمد لكلمي

أستاذ الفقه وأصوله

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية



تمهيد

ليس تأريخ العلوم بالأمر السهل الممهّدة سبيلُه، وإنما هو صناعة يحتاجُ من يرومها إلى عُدّة معرفية تساعدُه على الاطلاع على مختلف مراحلِه.. وإلى عُدّة منهجية يستعينُ بها على حسن الاستفادة من نتائجه وثمراته..

وتاريخ علم الطب عند العرب والمسلمين أكثر ما نحتاجُ فيه إلى استجماع العُدّتين: المعرفية والمنهجية..

أما العدة المعرفية فمصدرها كتبُ التاريخ والتراجم والطبقات والسير.. وأما العدة المنهجية فتتمثل في منهج الانتقاء الذي نراه أليقَ من غيره بالمقام..

وقد أوصلنا هذا المنهج إلى ما نعدُّه أهمَّ معالم تاريخ الطب عند العرب والمسلمين، فلنعرِّضُه في محاور ثلاثة:

أولاً: نشأة الطب في الإسلام:

يصعب على الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام أن يجد في المصادر التاريخية ما يشفي غليله من المعلومات الدقيقة الواصفة لما كانوا يتداوون به من وسائل وطرق، مع أن المؤرخين ذكروا أنه كان صناعةً «موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم؛ لحاجة الناس طُرّاً إليها»،^١ فكان أول اهتمامهم بالطب محكوماً بمنطق الحاجة، وكان لهم فيه مصدران:

أولهما: التجارب التقليدية المحلية، فكانوا يتداوون بما تُثبت صحراؤهم من الشجر والأعشاب، بعدما عرفوا خواصها العلاجية عن طريق الصدفة والتجربة والاستدلال العقلي.^٢

ثانيهما: وسائل الطب التي انتقلت إليهم عن طريق التعليم.^٣

ومع ظهور الإسلام تنامى اهتمامهم بالطب؛ لما حُص به من قبيل النبي ﷺ من التشجيع على تعاطيه، ثم لكثرة الحاجة إليه في مداواة جرحى الحروب والغزوات..

ومعظم أساليب التطبيب في ذلك العصر أفكاراً تطبيقية في الوقاية الصحية، وقلّة منها في قواعد العلاجات الجراحية البسيطة، كالحجامة والفصد والكي وقلع الأسنان ونحوها.^٤

ويمكن أن نعد الحارث بن كَلْدَةَ الثقفِي ت: ٣٣هـ، خيرَ من تُسْتَجَلَى عنده معالم الطب العربي في فجر الإسلام، فقد «كانت له معرفة بما

١ - ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم: ٤٩.

٢ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال: ٣٤٣/٢.

٣ - إميل سافاج سميث، الطب، ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط: ٢٠٠٥/٢، ج: ٣/١٩٦.

٤ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٢٢٩/١.



كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب».^١

فأما معرفته بأساليب العرب في المداواة فمما يدل عليها ما في قصة عيادته سعد بن أبي وقاص لما مرض بمكة، من أنه وصف له «فَرِيْقَةً بشيء من تمر عجوة وحُلْبَةٍ يطبخان، فتحسَّأها -سعد- فبرئ».^٢

وأما كلامه في الطب فمنه قوله لمعاوية مجيباً لما سأله عن حقيقة الطب: «الأزْمُ يا معاوية»، يعني: الجوع.^٣

وتعد عناية النبي ﷺ بالطب مبتدأ إقبال المسلمين عليه، وذلك من آثار اهتمامهم برواية الآثار النبوية الواردة في ذلك، وهي تدعو إلى الوقاية من الأمراض، واختيار الأطعمة النافعة، ومراعاة آداب عيادة المرضى، ولزوم استشارة الأطباء، والاهتمام بالنظافة الشخصية والرياضة البدنية.^٤

وقد أصبح للطب والأطباء وضع اعتباري نتج عن هذه العناية النبوية بميدان اختصاصهم؛ إذ أصبحوا متميزين عن ممارسون أعمال الشعوذة التي صار لزاماً تجنبها،^٥ فكان من آثار ذلك إقبال كثير ممن كانوا يمارسون تلك الأعمال قبل الإسلام على ممارسة الطب؛ إيماناً منهم بشرفه وسموه عن دناءة تلك الأعمال.

١ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، في طبقات الأطباء تحقيق: د. عامر النجار، دار المعارف- مصر، ط: ١٩٩٦/١م، ص: ٣٨٥.

٢ - المصدر نفسه.

٣ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، في طبقات الأطباء تحقيق: د. عامر النجار، دار المعارف- مصر، ط: ١٩٩٦/١م، ص: ٣٨٥.

٤ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٢٣٠/١-٢٣١.

٥ - المرجع نفسه: ٢٣١/١.



وممن ورد عنهم الخبر بذلك الشمردل بن قبات الكعبي النجرائي الذي روي أنه نزل بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني كنت كاهن قومي، وإني كنت أططب، فما يحل لي؟» فقال له عليه الصلاة والسلام: {فصد العرق، وتحسيم الطعنة إن اضطرت، ولا تجعل في دوائك شبرما - نبات له شوك يستعمل في علاج الوباء-، وعليك بالنساء}.^١

يتبين من هذا كله أن ظهور الإسلام وابتداء أمره كان إيذانا بميلاد عهد جديد في تاريخ الطب عند العرب، وهو عهد كثر فيه نوابغهم، وتنوعت في فروعه تخصصاتهم، فلنورد نبذة عنه في ثاني محاور هذه المحاضرة.

ثانيا: الطب في العهد النبوي:

ثمّدنا المصادر التاريخية بمادة وافرة من سير أعلام، نستخلص منها المعالم الكبرى لصناعة الطب في عهد النبي ﷺ وصحابته الكرام، نكتفي منها بذكر معلمين:

مصادر تعلم الطب:

تفيدنا كتب التراجم أن كثيرا ممن عاصروا النبي ﷺ من الأطباء، تعلموا الطب بأحد طريقتين:

تناقل التقاليد المتعارف عليها محليا في التطب والعلاج، كما في حديث عروة وتعجبه من علم عائشة بالطب، وبيانها أن ذلك كان

١ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط:
١٤١٥/١هـ-١٩٩٥م، ج: ٢٨٩/٣، وفي سند الرواية مقال كما قال الحافظ ابن حجر تعليقا
عليها بعد ذكرها في الكتاب.



من أثر ما كان النبي ﷺ يُعَلِّمُهَا، مما تنعت له وفود العرب من أنعات العلاج.^١

تلقي وسائل التطيب التي كان يفد بها على جزيرة العرب أمثال الحارث بن كَلْدَةَ الذي «سافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرّن هناك، وعرف الداء والدواء».^٢

أنواع التخصصات الطبية:

نستفيد من تتبع تراجم المشتهرين بالطب من الصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أن اشتغالهم به كان على ثلاثة أنواع:

أولها: طب التخصص: ومثّل له بـ:

طبّ الزوائد الجلدية: وممن وردت الإشارة إلى اشتغالهم به أبو رَمثة التميمي أو التيمي، الذي قدم على النبي ﷺ يقترح عليه أن يستأصل خاتم النبوة الذي كان على كتفه الأيسر،^٣ فكان بحكم تخصصه يحسب خاتم النبوة من الزوائد الجلدية التي يُحسّن علاجها.^٤

القبالة والتوليد: وممن ذُكر اختصاصه به من الصحابيات سلمى مولاة النبي ﷺ، التي كانت قابلة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكانت تُعدّ لولادتها ما تحتاج إليه.^٥

١ - محمود بن عمر الخزازي، تخريج الدلالات السمعية، على ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط: ١٤٠٥/١هـ-١٩٨٥م، ص: ٦٦٧.

٢ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، في طبقات الأطباء، ص: ٣٨٦.

٣ - البغوي، معجم الصحابة، دراسة وتحقيق: د. محمد الأمين الجكني، مكتبة دار البيان- الكويت، ط: ١٤٢١/١هـ-٢٠٠٠م، ج: ١٢٢-١٢١/٢.

٤ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص: ٤٠٠.

٥ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ١٨٧/٨.



ثانيها: طب الطوارئ والأزمات:

نعني به أعمال المداواة والتطبيب التي ورد ذكرها في سياق الأحوال الاستثنائية كالحروب والغزوات، وقد اشتهرت بهذه الأعمال صحابيات جليلات منهن: أم أيمن بركة الحبشية، وحمنة بنت جحش، والريبع بنت معوذ، وأم سَليط، وأم عطية الأنصارية^١ ورُفيدة الأسلمية التي كانت تداوي المرضى والجرحى في خيمة تنصب لها في المسجد.^٢

ثالثها: طب الصيدلة:

ففي كتب تراجم الصحابة شواهد كثيرة على ما كان لبعضهم من خبرة بالأدوية، وحرص على إبقائها في متناول اليد، تحسباً لطوارئ الأحوال.

من ذلك: ما ورد في ترجمة أم زياد الأشجعية أنها خرجت مع النبي ﷺ سادسة نسوة في غزوة خيبر، قالت: «خرجنا ومعنا دواء نداوي به الجرحى».^٣

فحمل الدواء من قبل ست نسوة قرينة دالة على وفرته، كما أن سياق الخبر وهو الخروج للحرب أمانة على نوعه، فلن يكون قطعاً إلا وسائل تضييد الجراح.

ومن شواهد ذلك أيضاً ما ورد في قصة محاولة أمهات المؤمنين معالجة النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه، بصَّب اللدودِ في جنب فمه الشريف لما أغمي عليه، وفيه أنه لما أفاق «سألهن عما لددنه به فقلن: «بِالْعُودِ الْهِنْدِيِّ وَشَيْءٍ مِنْ وَرْسٍ وَقَطْرَاتٍ زَيْتٍ»^٤، فمحل

١ - تنظر تراجمهم وما ورد فيها من إسناد مهام طب الطوارئ إليهن على الولاء في: الإصابة: ٣٦١/٨-٨٨-١٣٣-٤٠٨-٤٣٧.

٢ - ابن حجر، الإصابة: ١٣٦/٨.

٣ - المصدر نفسه: ٣٩٦/٨.

٤ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط: ١/١٠١٤١هـ/١٩٩٠م، ج: ١٨١/٢.



الشاهد منه أن بيت أم المؤمنين ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الذي وقعت فيه القصة، كان فيه من وسائل التطبيب باللد ما لم يُحوج أمهات المؤمنين إلى البحث عن هذه الوسائل خارج بيت ميمونة.

هذه أهم معالم الطب العربي في ما بين نشأته وعناية الإسلام به في عهده الأول، لم يعد تجارب المداوة والعلاج، سواء منها ما قضت العادة بنجاعته، أو شهد بجدواه آخذوا الصناعة الطبية من خارج جزيرة العرب.

وقد ثبت الأمر على ذلك طيلة القرن الأول بعد ظهور الإسلام، ليزغ فجر عهد جديد من عهود تاريخ الطب العربي، وهو عهد التطوير، فما أسباب الانتقال بين العهدين؟ وما أهم معالم الصناعة الطبية في العهد الجديد؟ ذلك ما سنفرد له ثالث محاور هذه المحاضرة.

ثالثاً: الطب في عهد التطوير:

يعدُّ انفتاح الأمة العربية على غيرها من الأمم بدايةً مرحلة تطوير علومها ومعارفها، ومن المعروف أن حركة الترجمة -التي بلغت أوج نشاطها في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث- قد حازت الفضل في ذلك؛ إذ بسببها تيسر للقارئ العربي أن يقرأ تراث «الآخر»، من العلوم النظرية والممارسات العملية.

ويذكر المؤرخون واقعةً يمكن عدّها مبتدأ تطوير العرب أساليبهم في الطب والاستشفاء، إنها واقعة اعتلال بعض خلفاء بني العباس، اعتلالاً لم يجد له أطباؤه علاجاً، فأشار عليه بعض المقربين منه بأن يلتمس شفاءه عند أطباء حاضرة جُنْدَيْسَابُورَ الفارسية، التي كانت آنذاك أكاديمية علمية عريقة مشهورة بالتقدم في العلوم



الطبية والفلسفية.^١

فكان الذي استُقدِمَ طبيباً مسيحياً عرف ب: «بختشيوخ» ت: ١٨٤هـ،^٢ ويبدو أنه أتى حاضرة الإسلام على قَدَرٍ، فكان طالعٌ سعدٍ على الخليفة بشفاء علقته على يديه، وعلى الطب العربي إذ فسح له مجال الإفادة من التراث الطبي اليوناني.

كان مما نشأ عن هذا الاستقدام تأسيسُ عرف وراثيةِ الطب في الحضارة الإسلامية؛ إذ إنه لما مات «بختشيوخ» خلفه ابنه في منصبه.^٣

توالى عمل الخلفاء على استقدام الأطباء الأجانب إلى بلاطاتهم، ومن الأسماء البارزة التي خلّدها كتب التاريخ: يوحنا بن ماسويه ت: ٢٤٣هـ، طبيب الخلفاء العباسيين من لدن الرشيد إلى المتوكل.^٤ وقد عهد إليه الرشيد أول ما استقدمه بترجمة الكتب القديمة، وهي دلالة على اقتناع السلطة الحاكمة في ذلك الزمان بأهمية إفادة الطب العربي من مختلف التجارب الإنسانية.

خلف ابن ماسويه تراثاً من الكتب، حفظت أسماءها مصادرُ ترجمته، كما خلف طالباً نجيباً، حمل على عاتقه أمانة مواصلة أعمال الترجمة بعد أستاذه، وإليه تعزو المصادر التاريخية فضل التعريف بتراث أطباء اليونان الأقدمين، فنصّت على أنه ترجم

١ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٣٣٧.

٢ - ابن جليل الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة،

بيروت-لبنان، ط: ١٤٠٥/٢-١٩٨٥، ص: ٦٣-٦٤.

٣ - ابن صاعد، طبقات الأمم: ٣٦.

٤ - المصدر نفسه: ٣٦.



كتب أبقراط وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، إنه الطبيب المترجم حنين بن إسحاق ت: ٢٦٠هـ.^١

ولقد كان من طوابع الإسعاد أن يوافق النهم العلمي لهذا العلم، الهمة العالية للخليفة العباسي عبد الله المأمون ت: ٢١٨هـ، فتهيأ من الوسائل لهذا العالم ما ساعده على النشاط في أعمال التأليف والترجمة، حتى بلغ عدد ما ترجم من كتب جالينوس - فيما ذكر بعض الباحثين - مائة كتاب، فضلا عما ألف لنفسه من كتب في مختلف التخصصات الطبية، خاصة في أمراض العيون.^٢

وجريا على تقليد التوارث ورث حنين بن إسحاق ابنه إسحاق وداود ما أفنى عمره في تحصيله والنبوغ فيه، فقسمه بينهما على السوية؛ إذ كان أولهما مترجما، وثانيهما طبيبا حاذقا.^٣

إن أعمال الترجمة التي قام بها حنين وغيره مثلت الأساس الذي بنى عليه الأطباء اللاحقون أعمالهم وأبحاثهم، كالرازي وابن سينا، وابن رشد، وابن النفيس، والزهرراوي، وابن زهر، والأنطاكي وغيرهم. وهي التي جعلت الطب العربي مصطبغا بصبغة الطب اليوناني، ومتأثرا بجالينوس، الذي عكف على كتبه الأطباء العرب، حتى أحلّوها محل صاحب الذي يؤنس به في الخلوة، وتُستدفع به الوحشة، كيف لا وهو «مفتاح الطب، وباسطه وشارحه بعد المتقدمين»؟!^٤

١ - المصدر نفسه: ٦٨.

٢ - ابن صاعد، طبقات الأمم: ٤٨، وانظر: يوحنا كريستوف بيرجيل، محمد ام جالينوس؟ الوجه المزدوج للطب في الحضارة الإسلامية، منشور على الشبكة العنكبوتية:

<http://www.eidmedia.ch/images/١٢.PDF>، ص: ٤.

٣ - ابن صاعد، طبقات الأمم: ٣٧.

٤ - ابن جلجل الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء: ٤٢.



ومن القصص الطريفة التي يتجلى فيها ذلك، قصة الطبيب الشاعر سعيد بن عبد الرحمن بن عبد ربه الأندلسي ت: ٣٢٤هـ، الذي فُصد يوماً فبعث إلى ابن عمه الأديب الشاعر أحمد بن محمد صاحب «العقد الفريد» يستدعيه ليؤانسه، فلما تأخر عنه كتب إليه:

«لَمَّا عَدِمْتَ مَوْانِسًا وَجَلِيْسًا نَادَمْتُ بُقْرَاطًا وَجَالِيْنوسًا
وَجَعَلْتُ كِتَبَهُمَا شِفَاءً تَفَرُّدِي وَهُمَا الشِّفَاءُ لِكُلِّ جُرْحٍ يُؤَسِّى
وَوَجَدْتُ عِلْمَهُمَا إِذَا حَصَلْتَهُ يُذَكِّي وَيُحْيِي لِلْجُسُومِ نَفُوسًا»^١
بل لقد بلغ من الأطباء التآثرُ بجالينوس والإعجاب به أن خُصَّوه بـ«ختم الطب»، وما الختم عندهم إلا بلوغُ الشأو البعيد الذي لا مطمح لأحد فيما وراءه!^٢

غير أن هذا التآثر لم يكن يمنعهم من مناقشة بعض نظرياته، في ضوء المنهج التجريبي الذي كان هو نفسه يدعو إلى إعماله. من ذلك مثلاً أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي كشف عن خطأ جالينوس فيما كان يعتقد من أن عظم الفك الأسفل للإنسان مكون من جزئين، فأثبت -بعد فحصه عددا كبيرا من الجماجم البشرية- أنه عظم واحد، مقررًا أن الحسَّ والتجربة أقوى من آراء جالينوس.^٣

١ - المصدر نفسه: ١٠٤.

٢ - يقول ابن أبي أصيبعة: «إن الذي قد علم من حال جالينوس واشتهرت به المعرفة عند الخاص والعام في كثير من الأمم، أنه كان خاتم الأطباء الكبار المعلمين، وأنه ليس يدانيه أحد في صناعة الطب، فضلا عن أن يساويه... ولم يجر بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه» عيون الأنباء، في طبقات الأطباء: ٣٠٧.

٣ - ابن صاعد، طبقات الأمم: ٤٨، وانظر: يوحنا كريستوف بيرجيل، محمد ام جالينوس؟ الوجه المزدوج للطب في الحضارة الإسلامية، منشور على الشبكة العنكبوتية:

http://www.eidmedia.ch/images/١٢.PDF، ص: ٦.



صاحبَ هذا التقدّم في الأبحاث الطبية العربية ومناهجها تطوّر في وسائل رعاية المرضى، كان من أهم مظاهره إقامة مؤسسات العلاج والمداواة التي يشرف عليها الأطباء، وهي التي عُرفت بالبيمارستانات.

وهي «مستشفيات جامعية» كانت تجمع بين وظيفتي مداواة المرضى وتكوين أطر المهن الصحية، فيتخرج منها الأطباء والجراحون والصيدلة والممرضون.

يذكر المؤرخون أن أول مستشفى في الإسلام هو الذي بناه الوليد بن عبد الملك ت: ٨٨هـ، وأنه عيّن فيه الأطباء وأجرى لهم الجراحات والرواتب، وأمر بعزل المجذومين لئلا يختلطوا بالناس، فكان هذا أيضاً أول حَجْر صحي في الإسلام.^١

ثم تنامى الاهتمام بتأسيس المارستانات، فتزايد عددها، حتى ذكر أن قرطبة وحدها كان بها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر الميلادي.

وقد كانت مواضع تشييدها تُراعى في اختيارها شروط صحية،^٢ ومعايير وقائية؛ فقد حكى المؤرخ ابن أبي زرع أن حارة المرضى بمدينة فاس روعي في تأسيسها أن تكون تحت مجرى الريح الغربية،

١ - القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، دار الكتب المصرية: ١٣٤٠هـ-١٩٢٢م، ج: ٤٣١/١-٤٣٢.

٢ - حكى أن عضد الدولة البويهلي لما أراد أن يبني مارستانا استشار أبا بكر الرازي في ذلك، فأشار عليه أن يعلق في كل ناحية من جوانب بغداد قطعة لحم، وأن ينشئه في الناحية التي لم يتغير اللحم، وهي حكاية مشكوك في صحتها، لكن العبرة في ورودها لا بتاريخها انظر: د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٤١٦/١.





لتحمل الرياحُ أبخرتهم فلا يصل إلى أهل المدينة منها شيء، وليكونَ تصرفهم من الماء وغسلهم بعد خروجه من البلد.^١

ومما يُسْتَفَادُ منه الطابع المؤسسي لهذه المستشفيات، ما حَفَلَتْ به كتب الرّحلات من الوصف الدقيق لأنظمة تسييرها، وعمل الأطباء بها.

ففي رحلة ابن جبير، ذكّرُ مارستانِ القاهرة في القرن السابع الهجري، ووصفَ ما كان ولاية الأمر يولونه من العناية الفائقة، وأن السلطان العباسي الناصر لدين الله كان قد عينَ فيه «قيّما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير، ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها.. وبين يدي ذلك القيّم خدَمَةٌ يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيّة، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتُّخذت محابسَ للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها».^١

وإلى جانب هذه المؤسسات القارة الثابتة، وُجد نمط متنقل من المارستانات، هو شبيه بحملات القوافل الطبية التي تُسَيَّرُ إلى المناطق النائية؛ لتتفقد الحالة الصحية لعامة أهلها، أو التي توجّه إلى السجون، أو التي تُبَعَثُ إلى الأقطار الموبوءة، أو إلى ساحات الحرب والقتال.

١ - أبو الحسين محمد الكناني، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت-لبنان، ص: ٢٦.

وقد أورد القفطي تكليفين رسميين في زمن المقتدر بالله العباسي، وجههما وزيره علي بن عيسى بن الجراح ت: ٣٣٥هـ، إلى الطبيب سنان بن ثابت البغدادي ت: ٣٦٥هـ، يأمره في أولهما بأن يتفقد المساجين، في إحدى السنوات التي كثرت فيها الأوباء،^١ ويوجهه في الثاني إلى العناية بسكان المناطق النائية، وتعيين طاقم طبي دائم التنقل والتطواف في تلك المناطق،^٢ وهي تدابير احترازية وقائية، أُتخذت تفاديا للأزمات الصحية، التي كثيرا ما تنشأ في الأرياف والمناطق المعزولة، قبل أن تصل عدواها إلى الحواضر.

ومن هذه المستشفيات المتنقلة البيمارستان السيّار الذي أنشأه الطبيب أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الأندلسي ت: ٥٤٩هـ، للسلطان السجوقي محمود بن سبكتكين، سنة ٥٢١هـ، والذي من كثرة عتاده كان لا يُحمل إلا على أربعين جملا.^٣

هكذا صار الطب العربي ينحو نحو المؤسسة والتنظيم، بتضافر جهود الأطباء ودعم الأمراء والسلاطين.

لكن هذه الجهود لم تنحصر في نطاق الوسائل المادية فحسب، بل تجاوزته إلى الطب باعتباره مهنةً تمارس، فصار لزاما أن تُحاطَ بنظم صارمة، تحفظ لها حرمتها، وكان ذلك أيضا من الجوانب المهمة التي أبدع فيها أهل الصناعة، بمؤازرة من أهل الإمارة، وذلك في مستويي التنظيم والتخليق.

١ - علي بن يوسف القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٥٠.

٢ - المصدر نفسه: ١٥١.

٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت-

لبنان، ١٩٠٠، ج: ١٢٤/٣، ابن عساكر، تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤١٦هـ-

١٩٩٦م، ج: ١٢٠/٢٧.





فأما في مستوى تنظيم مهنة الطب: فإننا نجد في كتب التراجم والطبقات لقبَ «رئيس الأطباء»، وهو لمن حُلِّوا به لقبُ تشریف، وصفة تكليف؛ إذ يحملهم أمانة الإشراف على سير عمل الأطباء ومراقبته،^١ حتى لا يتعاطى الطبَّ من ليس من أهله، ولا يتهاونَ الطبيبُ في شيء منه.^٢

ويبدو أن تداخل اختصاصات منصبى الحسبة^٣ ورئاسة الأطباء، هو ما أدى إلى اشتهاى الأولى وضمور الثانية؛ ولذلك وجدنا الشيرازي في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» ينيط بالمحتسب مهماتِ رئيس الأطباء، فيقول: «وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم - يعني الأطباء- عهد -قسم- بقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلّفهم ألا يُعطوا أحدا دواءً مضرا، ولا يركّبوا له سُمًّا، ولا يصفوا التمام عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنّة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفتشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار».^٤

وكلام الشيرازي هذا وإن كان واردا في سياق الحديث عن التنظيم الإداري لمهنة الطب، يشي بالمستوى الثاني الذي أبدعه أهل الصناعة

١ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٤٢١/٢-٤٢٢..
٢ - ابن الأخوة، معالم القرية، في أحكام الحسبة، تحقيق: د. محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦، ص: ٢٥٥-٢٥٦.
٣ - الحسبة وظيفية دينية شبه قضائية، تقوم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهمتها الإشراف على المرافق العامة، وهي اليوم ما يصطلح عليه في الأنظمة القضائية بالنيابة العامة، أو الشرطة الموكلّة بالأسواق والآداب العامة، انظر: أحمد عطية الله، دائرة المعارف الرقم الحديث: ٥، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ١٩٧٩/٢، ج: ٧١٢-٧١٣.
٤ - عبد الرحمن ابن نصر الشيرازي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبوع بذييل كتاب السياسة للمرادي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص: ٢٦٤.

في سبيل حفظ هذه المهنة وشرفها، إنه مستوى التخليق بإحياء الضمير المهني للطبيب.

وتعود أصول العناية بهذا الجانب إلى الوصايا التي كان النبي ﷺ يخص بها الأطباء، توعية لهم بقدسية مهمتهم، ونُبُل مهنتهم.^١

كما في قصة الرجلين الذين استُدعيا لمداواة مريض فوجدا عنده النبي ﷺ يعوده، فقالا والمريضُ يسمعُ: «أَوْ فِي الطَّبِّ خَيْرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» فأجابهما ﷺ بقوله: {أنزل الدواء الذي أنزل الداء}.^٢

فكانت نصيحةً لهما أن يؤمنا بمهنتهما النبيلة، إيماناً يحملهما على بذل غاية وُسْعهما في المداواة والعلاج.

إن إيمان الطبيب بنبل رسالته، هو ما يدفع به إلى معاملة كل مريض بما يساعده على التعافي، ويعينه على الاستجابة للعلاج! ومن التوجيهات النبوية للأطباء أن يرعوا تخصصاتهم؛ فلا يتسوّروا على ما لا دربة لهم عليه من أنواع المداواة، ولا يتجرؤوا على ما لا يُحيرون له دواءً!.

في حديث الشمردل بن قُبات الكعبي أن النبي ﷺ قال له: {ولا تُداو أحدا حتى تعرف داءه}.^٣

فهذا التوجيه النبوي يتعلق بالجانب الخُلقي لدى الطبيب، يخاطبُ ضميره الإنساني؛ إذ لا شيء أقدرُ على التأثير في مضمرة القلوب وأحوالها إلا الضمير..

١ - د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي: ٢٢٥/١.

٢ - أخرجه مالك: كتاب الجامع، باب تعالج المريض، برقم: ٧٤٤.

٣ - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٣، ٢٨٩/٣، وفي سند الرواية مقال كما تقدم.



وبعد، هذه بعض معالم تاريخ طبنا العربي، كما تشهد به نصوص التعريف به، وما هي إلا سيرُ أهله والمشتغلين به..!

وقد أفادنا رصدُ هذه المعالم أنّ فلسفة الطبِّ كما تمثلها أسلافنا الأوائل، تقومُ على اعتباره مشتركاً إنسانياً، على الشعوب والأمم جميعاً أن تسهم في مواصلة تطويره، وأن تتعاون في بذل منفعه، وجني ثماره..

لذلكم لم يجد المسلمون الأوائل حرجاً في تعلمه من الفرس واليونان، كما لم يجدوا غضاضة في الاستفادة من أعمال اليهود والمسيحيين في الترجمة، بل وثقوا في أمانتهم، فتلقوا منهم بالرضى والقبول ما نقلوا إلى لغتهم من كتب غيرهم..

فكان تاريخ الطب العربي بحق ميدانَ تمثلِ قيم الإسلام الأصيلة، وسطيةً وتسامحاً وبذلاً للخير العام..



قصة الطاعون في القرآن الكريم وإشارات المفسرين

د. فهد الميموني

أستاذ القرآن الكريم وعلومه
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية



الحمد لله الذي خَلَقَ فَسَوَّى، وعلى عرشه استوى، ثم أجرى قَلَمَهُ بما يكونُ من الوري، من البر والبلوى، فأثابَ الْمُطِيعَ بِحُسْنِ الْمَأْوَى، وبسطَ يده للمُسيء ليكرع من مشرع الإيمان الرَّوَى.

أما بعد، فسُنن الله تعالى ماضية في الأولين والآخرين، ﴿وَلَكِنْ تَجِدْ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^١، وتلك القوانين الإلهية المطردة قد تكون متبّرة، وقد تكون مذكّرة، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^٢، وبنو آدم مهما بلغوا في الآفاق من الاكتشافات، فإنهم لا يزالون في بوتقة المرثيات الممكنات التي تُعدّ أقل مقارنةً بما خلق الله من المحجوبات والمكنونات، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^٣.

١ - سورة الفتح، الآية: ٢٣.

٢ - سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

٣ - سورة مريم، الآية: ٩٣.

وهذه العبودية المطلقة ما هي إلا نزرٌ يسيرٌ من تمثلات استسلام الروح لبارئها، إذ الأرواح {جنود مجندة} ^١، وجند الله لا يعصون الله، فكُلُّما نَدَّتْ -أحياناً- بعض الأنفس عن نظام الإخبات إلى الخبث، استجدَّ خلل في الأرواح المبتوثة في السماء والسماءة، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^٢، حينئذ تنطلق نواميس القضاء إلى صراع الأرواح، وتسليط بعض الجنود الخفية الحفية على بعض الجنود الجليلة العصية، وذلك عين ما ذكره الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ ^٣.

والقرآن الكريم زخارٌ بذكر أسباب بثِّ الأقراح المهلكات، والإرشاد إلى ما تُدرأ به، في ثنانياً قصص السالفين، وبعض الإشارات التي نظفر بها في تضاعيف مصنفات المفسرين، ولذا جاءت هذه الورقة (قَصص الطاعون في القرآن الكريم وإشارات المفسرين)، إذ الوباء أو الطاعون من السنن كما أشير إليه في حديث أسامة بن زيد مرفوعاً: {إن هذا الوباء شيءٌ عُذِبَ به الأمم قبلكم وقد بقيت في الأرض منه بقية فيقع أحياناً ويذهب أحياناً، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تدخلوا عليه}. ^٤



١ - جزء من حديث مشهور، البخاري، رقم الحديث: ٢٣٣٦، مسلم، رقم الحديث: ٢٦٢٨.

٢ - سورة الفتح، الآية: ٤ و٧.

٣ - سورة المدثر، الآية: ٣١.

٤ - الطبراني، المعجم الكبير، رقم الحديث: ٢٧٦، والشاشي، المسند، رقم الحديث: ١١٢.

الفصل الأول: الطاعون تعريفه واشتقاقه ومفرداته الأخرى:

المبحث الأول: تعريف الطاعون:

الطاعون في اللغة: الموت من الوباء، وحدّه السيوطي بالتعريف المنسوب إلى ابن النفيس أنه: «فسادٌ يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية»^١.

ووزنه فاعول من الطعن، غير أنه لما عدل به عن أصله وضع دالاً على الموت العام بالوباء، ويروى من حديث عائشة i أن رسول الله ﷺ قال: {فناء أمتي بالطعن والطاعون} قالت: الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: {غدة كغدة البعير}^٢.

قال العلماء: وهذا الوباء قد يرسله الله شهادة ورحمة للصالحين، كما قال معاذ في طاعون عمواس: إنه شهادة ورحمة لكم ودعوة نبيكم^٣.

وقلما يُغفل الشعراء في دواوينهم ذكرَ حتوف الطواعين، ولعل أقوى شعر تم نظمه في شأن هذه الجائحة؛ القصيدة التي رثا بها الشاعر المخضرم أبو ذؤيب الهذلي (ت: ٢٧ هـ) موت خمسة أبنائه بالطاعون، مطلعها:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ؟ وَالذَّهْرُ لَيْسَ مِمُّعْتَبٍ مَنْ يَجَزَعُ^٤

وفيه يقول الأخطل وهو يرد على الفرزدق وجريه:

فإن تك زق زاملة فإنني أنا الطاعون ليس له شفاء^٥

١ - السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم: ١٨٧.

٢ - أخرجه الإمام أحمد، مسند عائشة، رقم الحديث: ٢٤٥٦٩.

٣ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٣٤/٣، بتصرف.

٤ - ديوان الهذليين: ١/١، خويلد بن خالد المضري، ديوان أبي ذؤيب، كتاب الأغاني: ٢٨٦/٦.

٥ - الأخطل، ديوان الأخطل، شرح مهدي محمد ناصر الدين: ١٩.





المبحث الثاني: المفردات والمصطلحات المستعملة في معنى الطاعون:

يبدو أن جيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم قد أكثروا من استعمال المصطلحين معا الوباء أو (الطاعون) بحيث يدلان على معنى واحد، مثل ما نراه واضحا فيما أخرجه مالك في الموطأ في «باب ما جاء في الطاعون»، ثم أورد حديث ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بِسَرَعٍ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام...^١ الخ وأورد بعده حديث أسامة بن زيد مرفوعا: {الطاعون رجز...}^٢ الحديث. ومن المصطلحات المستعملة له (الوجع)،^٣ والعذاب، والرجز،^٤ وشرح في رواية عائشة عند ابن راهويه في مسنده: {غُدَّةٌ تأخذهم في مرافقتهم}.^٥

ومن تلك المسميات التي استعملتها قريش خاصة للدلالة على الطاعون: العَدَسَة، «وهي قرحة كانت العرب تتشائم بها، ويروون أنها تُعدي أشدَّ العدوى»،^٦ وبها مات أبو لهب.^٧

ويطلق مصطلح (الموتان) على الطاعون لحديث البخاري: {اعددْ سِتًّا بينَ يدي الساعة [وذكر منها] موتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم}.^٨

١ - مالك، الموطأ، رقم الحديث: ٦٧٣.

٢ - المصدر نفسه، رقم الحديث: ٦٧٤.

٣ - كما في أثر صلة بن زفر في كتاب الفتن لنعيم بن حماد، الفتن، رقم الحديث: ٣٣٩.

٤ - صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٢١٨. ابن أبي شيبه، المصنف، رقم الحديث: ١٤.

٥ - إسحاق بن راهويه، المسند، رقم الحديث: ١٣٧٦.

٦ - مجير الدين العليمي، التاريخ المعترف في أنباء من غير: ١٢١/١.

٧ - الخليل، العين: ٣٢١/١، وانظر ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: ٣٤١.

٨ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٣١٧٦.

وكذلك الوَحْيِيُّ،^١ والفصل،^٢ والقُرءة؛ لجمعه الهمم،^٣ وهنا تجدر الإشارة إلى فائدة ذكرها الزبيدي - وهو رحمة الله عليه ممن توفي بالطاعون سنة (١٢٠٥هـ) - فقد حكى عن الأصمعي قوله: «القِرَاءَةُ بالكسر الوباء قال الأصمعي: إذا قدمت بلادا فمكثت بها خمس عشرة ليلة فقد ذهبَتْ عنك قِرَاءَةُ البلاد».^٤ فيمكن اعتبار الأصمعي أول من حدد زمن الحجر الصحي بخمس عشرة ليلة وهي بالضبط أربعة عشر يوما حسب الإجراءات الراهنة.

ومن ألقابه: القَرَفُ،^٥ والشوكة،^٦ والدَّبَلُ،^٧ والديبيلة،^٨ والدَّبَابُ،^٩ والزَّقْمَةُ،^{١٠} ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾^{١١} وقد سماها القرآن بهذه الإضافة لأنها مشتقة من الزَّقْمَةُ بضم الزاء وسكون القاف وهو اسم الطاعون».^{١٢}

وبعضهم فرق بين الطاعون والوباء فقال: الوباء قد يدخل مدينة رسول الله ﷺ والطاعون لا يدخلها، لحديث أبي هريرة مرفوعا: {على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الدجال ولا الطاعون}.^{١٣}

١ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ٦٢٨.

٢ - الزبيدي، تاج العروس: ١٧٠/٣٠.

٣ - البقاعي، نظم الدرر: ٩/١١.

٤ - مرتضى الزبيدي، تاج العروس: ٣٧٣/١.

٥ - الأزهرى، تهذيب اللغة: ٩٥/٩.

٦ - الصغاني، التكملة والذيل والصلة: ٢١٤/٥.

٧ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ٩٩٧.

٨ - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: ٣٣٧/٩.

٩ - الأزهرى، تهذيب اللغة: ٢٩٦/١٤.

١٠ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ١١١٨.

١١ - سورة الدخان، الآية: ٤٣-٤٦.

١٢ - ابن عاشور، التحرير والتنوير: ١٢٣/٢٣.

١٣ - مالك، الموطأ، رقم الحديث: ٦٦٩.



وهذا الفهم في رأيي يحتاج إلى نظر، لأن من ذهب إلى ذلك خفي عليه شيئان: أولهما أن الأصل جمع روايات الحديث كلّها، ثم بناء الحكم بعد ذلك، وقد صح من رواية جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وجود جملة (إن شاء الله) ففي حديث أنس مرفوعاً: {ولا الطاعون إن شاء الله}.^١

وأبين منه حديث جابر مرفوعاً: {ولا يقربها - إن شاء الله- الطاعون، ولا الدجال}،^٢ ولذلك كرر البخاري هذه الرواية فأوردها في الطاعون، وأوردها في باب في المشيئة والإرادة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.^٣

والأمر الثاني أنه مرّ في تاريخ المدينة جوائح وأوبئة كسائر أقطار الأرض، وكفى دليلاً زماننا الحاضر، «وغير خاف أن الوباء هو فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومَدده، واستدل بعضهم على ذلك بأنه صح أن المدينة لا يدخلها الطاعون، وصح عن عائشة أنها أوبأ أرض الله».^٤

ومن المناسب هنا الاستئناس بقصة الناس الذين اجتووا المدينة، كما في الصحاح.^٥



١ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٧١٣٤، وأحمد، المسند، رقم الحديث: ١٢٢٤٤.

٢ - أحمد، المسند، رقم الحديث: ١٥٢٣٣.

٣ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٧٤٧٣.

٤ - القنوجي، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: ٤٩٨.

٥ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٥٠١.

الفصل الثاني: قصص الطاعون في القرآن الكريم وإشارات المفسرين

المبحث الأول: قصص الطاعون الواردة في القرآن

بعد تثوير لسور الذكر الحكيم، والنظر في جملة من المصنفات التفسيرية لساداتنا العلماء ظهر لي أن الآيات الصريحة في القصص المرتبطة بالأوبئة الواقعة على الماضين ثلاث آيات، والأخيرة دلالتها ظنية، وأما المستنبطات فيأتي ذكرها في المبحث الثاني من هذا الفصل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^١.

أجمع المفسرون أن هؤلاء أرادوا الفرار من الطاعون، فعن قتادة بن دعامة السدوسي -وهو من ضمن من مات بالطاعون بواسطة سنة (١١٧هـ)- قال: أجلاهم الطاعون فخرج منهم الثلث ... فخرجوا كلهم فأماتهم الله عقوبةً^٢. وأخرج الحاكم في المستدرک بسند صحيح عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: «كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارا من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضا ليس بها موت، فقال لهم الله: موتوا، فماتوا، فمربهم نبي، فسأل الله أن يحييهم فأحياهم»^٣.

١ - سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

٢ - ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٤٥٧/٣.

٣ - الحاكم، المستدرک على الصحيحين، رقم الحديث: ٣١٣١.



لكنَّ الطبري في عددهم رجَّح أنهم أكثر من عشرة آلاف، موظِّفا قاعدة الأوزان في جمع الكثرة وجمع القلة، حيث قال: «وأولى الأقوال- في مبلغ عدد القوم قول من حد عددهم بزيادة عن عشرة آلاف، دون من حده بأربعة آلاف، وثلاثة آلاف، وثمانية آلاف، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عنهم أنهم كانوا ألوفا، وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم: «ألوف».^١

يقول ابن كثير: «وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يُغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلبا لطول الحياة فعملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا في آن واحد».^٢

وقال ابن عجيبة المتوفى بالطاعون في تطوان سنة ١٢٢٤هـ في تفسيره البحر المديد: «والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام في تلك الشريعة، كما حرّم في شرعنا».^٣

وهذه القصة مشابهة لما نقرأه في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر نبوءة حزقيال في العهد القديم.^٤

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا﴾^٥ ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بالطوفان هنا هو الطاعون، وإليه ذهب مجاهد



١ - ابن جرير، جامع البيان: ٤٢٣/٤.

٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٦٦١/١.

٣ - ابن عجيبة، البحر المديد: ٣٦٩/١.

٤ - العهد القديم، سفر حزقال، الإصحاح: ٣٧-١١٨٣.

٥ - سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.

وعطاء، ونقل الجرجاني عن وهب أنه الطاعون بلغة أهل اليمن،^١ وذهب النسفي والإيجي أنه الجدري،^٢ ويقوي هذا الوجه ما نص عليه ابن سينا: «إذا كثرت الضفادع في سنة وزادت على العادة يقع الوباء عقبيه»؛^٣ ولذلك طلبت بنو إسرائيل عقب ذلك من موسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ ۖ﴾،^٤ وهو الطاعون».^٥

والرجز هنا هو الطاعون،^٦ وبه جزم أكثر المفسرين.

وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.^٧

وقد قرئت (قَرِح) و(قَرْح)، ومن معاني (القَرِح) كما قال الخليل في كتابه (العين): «جَرَبٌ يأخذ الفُصْلان لا تكادُ تنجو منه».

والقُرْحان هو المصاب بالطاعون،^٨ والقُرْحان أصله من الجُدري،^٩

١ - الجرجاني، درج الدرر: ٦٧/١.

٢ - الإيجي، جامع البيان: ٦٤٦/١، النسفي، مدارك التنزيل: ٥٩٨/١.

٣ - الخلوئي، روح البيان: ٢٢٢/٣.

٤ - سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

٥ - ابن جرير، جامع البيان: ٣٩٩/١٠.

٦ - ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: ١٥٥٠/٥، السيوطي، الدر المنثور:

٧ - سورة آل عمران، الآيات: ١٣٧-١٤٢، ٥٢٥/٣.

٨ - ابن سيده، المخصص: ٢١٩/٢.

٩ - ابن الجوزي، غريب الرقم الحديث: ٢٢٩/٢.





وسياق الآية يحتمل الإيحاء إلى المهلكات التي تصيب الأمم، فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾^١ التي سبب نزولها ما وقع للمسلمين في أحد مسلية لهم، ثم تأتي جملة ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾^٢ غير أنها تطابق قراءة الجمهور، دون قراءة حمزة والكسائي وشعبة؛ إذ (قُرِح) قد تفيد الإشارة إلى ما هو حاضر في الأذهان من المعاني الأخرى التي عُهد من الأحرف السبعة أن تتضمنها، نحو ما تضمن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾^٣ بقراءة ﴿لَعَلَّمٌ﴾.

المبحث الثاني: إشارات المفسرين إلى آيات الطواعين:

تعددت الآيات التي أشار ضمنها المفسرون إلى الأوبئة والطواعين، ومجمل الأمور التي تتجاذب المفسرين في هذا الشأن سبعة أشياء، الوضع اللغوي، والمجاز، وقصص بني إسرائيل، والتاريخ الغابر للعرب، والسياق المرجح، وورود الأثر عن النبي ﷺ، والقراءات. ففي درج الدرر للجرجاني عند قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾^٤ قال «وهب: هو الطاعون بلغة اليمن».^٥

ومنه الطوفان وهو «كل ما طاف بك ليهلكك ولا قدرة لك عليه».^٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾^٧ «واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون، والكلام

١ - سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

٢ - سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

٣ - سورة الزخرف، الآية: ٦١.

٤ - سورة القلم، الآية: ١٩.

٥ - عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور: ٧٩٥/٢.

٦ - الشنقيطي، العذب النمبر: ١١٣/٤.

٧ - سورة الجمعة، الآية: ٨.

في ذلك طويل، فمنهم من حرمه - كابن خزيمة - فإنه ترجم في صحيحه - باب الفرار من الطاعون من الكبائر - وأن الله تعالى يعاقب من وقع منه ذلك ما لم يعف عنه، واستدل بحديث عائشة: {الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف} رواه الإمام أحمد، والطبراني، وابن عدي، وغيرهم، وسنده حسن»^١.

وفي تفسير أبي المظفر السمعاني أشار في قول الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^٢، قال: إذا غاب، وذكر ذلك إذا غاب الثريا ظهرت العاهات والبلايا، وإذا طلع الثريا رُفعت العاهات والبلايا، وذلك مثل الوباء والطواعين والأسقام وما يشبهها.^٣

وأما الحرالي فقد أشار في قوله تعالى ﴿وَنَقِصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ﴾^٤ قال: «فيه إشعار أن من جاهد كثير عدده ونما ولده، وأن من تكاسل قل عدده، ودرج خلفه، وفي ضمنه إشعار بمنال المتكاسل حواصل من جوارف الآجال من الوباء والطاعون»^٥.

وذكر الجاوي في تفسيره مراح لبيد الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ مِمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^٦ «رجزا أي طاعونا مقدرا من السماء، وروي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا»^٧. وبه جزم ابن عاشور في التحرير^٨، وفي تفسير يحيى بن سلام أنه بلغه «أن ذلك العذاب

١ - الألوحي، روح المعاني: ٢٩٢/١٤.

٢ - سورة الفلق، الآية: ٣.

٣ - السمعاني، تفسير السمعاني: ٣٠٦/٦.

٤ - سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

٥ - الحرالي، تراث أبي الحسن الحرالي: ٢٨٤.

٦ - سورة البقرة، الآية: ٥٩.

٧ - محمد بن عمر نووي الجاوي، مراح لبيد: ٢٣.

٨ - ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٥١٤/١.



الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً»^١.

ونرى صاحب تهذيب اللغة قال في قوله تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^٢
قال بعض المفسرين: «أراد أنه طعين، أي أنه أصابه الطاعون»،^٣
وأصل هذا عند أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن.^٤

وذكر مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسَلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ
بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^٥ وذلك
أن عامراً قال للنبي ﷺ: أخبرني عن ربك، أهو من ذهب، أو من
فضة، أو من نحاس، أو من حديد، أو ما هو؟ فأنزل الله تعالى:
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾^٦ فسَلَطَ الله عليه الطاعون في بيت امرأة
من بني سلول، فجعل يقول: عامر قتيل بغير سلاح، غدة كغدة
البعير، وموت في بيت سلولية، أُبْرُزُ يا ملك الموت حتى أقاتلك:
فذلك قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^٧، يعنى الرب تعالى نفسه،
يعني شديد الأخذ إذا أخذ، نزلت في عامر بن الطفيل، وأريد بن
قيس»^٨.

وأشار ابن ملا حويش في بيان المعاني إلى قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا
لَّمْ تَرَوْهَا﴾^٩ «وعليه فلا يظنُّ أحدٌ استحالة جنودٍ لم ترها العيون،
لأن الجرائيم الصغيرة التي لا تُرى إلا بالملكبات هي من جنود الله

١ - ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: ١٤٣/١.

٢ - سورة الصافات، الآية: ٨٩.

٣ - الأزهرى، تهذيب اللغة: ٣٢٢/٨.

٤ - أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: ٣٠٨/٤.

٥ - سورة الرعد، الآية: ١٣.

٦ - سورة الإخلاص، الآية: ١.

٧ - سورة الرعد، الآية: ١٣.

٨ - مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٧٢/٢.

٩ - سورة الأحزاب، الآية: ٩.



الفتاكة، وأن الله تعالى يسوقها مع الرياح ويسلّطها على من يشاء من خلقه، وخاصة الطاعون»^١.

وذهب بعض المفسرين منهم المراغي إلى أن سورة الفيل دالة على موضوعنا حين قال: «وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة، قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندُر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، وأصيب الحبشي ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة، وأهمة أهمة، حتى انصدع صدره ومات في صنعاء»^٢.

خاتمة

رغم كون الوباء مبغوضاً من قبل الأمم كلها، باعتباره أدهى الدواهي التي تفتك بالبشرية، إلا أن المحن تتخللها منح، فاعتبر الشرع الطاعون من وجه آخر {شهادة لكل مسلم}^٣ كما في حديث أنس، وفي رواية عائشة: {أن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يُصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد}^٤، وروي في حديث حسن عن معاذ بن جبل موقوفاً، -وهو ممن مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة عن ثمان وثلاثين سنة-: {إن هذا الطاعون رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم}^٥.

١ - عبد القادر بن ملا حويش، بيان المعاني: ٣٨٣/٤.

٢ - المراغي، تفسير المراغي: ٢٤٢/٣٠.

٣ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٢٨٣٠.

٤ - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٣٤٧٤.

٥ - الطبراني، المعجم الكبير، رقم الحديث: ٢٣١.



وما أشبه اليوم بالبارحة في الموافقات العجيبة التي وقعت، حينما نرى أبا جعفر بن خاتمة الأندلسي الطبيب العربي الذي عاصر الطاعون الجارف الواقع سنة: ١٣٤٨م/٧٤٩هـ، والذي حصد أزيد من سبعين مليون نسمة، وصنف هذا الطبيب كتابه ((تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد))، فذكر أن ابتداء ذلك الطاعون كان من الصين، وقال: الظاهر الذي لا خفاء به ولا غطاء عليه أن هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره، شهدت بذلك العادة، وأحكمتها التجربة، فما من صحيح يلبس مريضا، ويطيل ملبسته إلا وتتطرق إليه إذائته^١ ثم تطرق إلى كيفية الاحتراز منه على نحو ما يصنعه العالم الآن.

ومن ضمن ما فاتته الإشارة إلى بعض الاحترازاات التي وُقِّعت إليها الأمة الإسلامية وهي منع التجمع مطلقا ولو كان للصلاة والطواف، ونحو ذلك، فقد ذكر ابن حجر -وهو ممن فقد بناته في طاعون مصر- أن الاجتماع للدعاء غير مشروع حينئذ فقال: «وأما الاجتماع له كما في الاستسقاء؛ فبدعة حدثت في الطاعون الكبير بدمشق سنة تسع وأربعين وسبع مائة، فقرأت جزء المنبجي بعد إنكاره على من جمع الناس في موضع، فصاروا يدعون ويصرخون صراخًا عاليًا... خرجوا إلى الصحراء ومعظم أكابر البلد فدعوا واستغاثوا، فعظم الطاعون بعد ذلك، وكثر، وكان قبل دعائهم أخف، ... ووقع هذا في زماننا، حين وقع أوّل الطاعون بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلثين وثمانمائة، فكان عدد من يموت بها دون الأربعين، فخرجوا إلى الصحراء في الرابع من جمادى الأولى، بعد أن نُودي فيهم بصيام ثلاثة أيام، كما في الاستسقاء،

١ - مخطوطات ومطبوعات، محمد كردي، علي: ٣٦١.



واجتمعوا، ودعوا، وأقاموا ساعة، ثم رجعوا، فما انسلخ الشهر حتى صار عددٌ من يموت في كل يوم بالقاهرة فوق الألف، ثم تزايد»^١ وكل ذلك يدعو كل لبيب أن يكون مسؤولاً، ويتخذ قصص القرآن عبرة ودليلاً، وسير الصالحين أسوة وسيلاً، وألا يكون نزقا عجولاً، بل يجعل من الحجر الصحي اعتكافاً وخليلاً، والحمد لله بكرة وأصيلاً.



١ - ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون: ٢٢٩

تأصيل الجائحة لغة واصطلاحا

د. محمد الظريف

أستاذ اللغة العربية وآدابها

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية



بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين
الموضوع الذي أسعد بتقديمه في هذا البرنامج الشيق الذي أطلقتته
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية في هذه الظرفية الصعبة التي
يعيشها العالم اليوم هو: تأصيل كلمة «جائحة» لغويا واصطلاحيا.
وهو موضوع أساس في النظر في كل ما يمكن أن يقدم من بحوث
ودراسات حول هذا الموضوع الذي سالت فيه أقلام كثيرة هذه
الأيام، بل هو عتبة العتبات ومقدمة المقدمات، فتحديد المفاهيم
وضبط المصطلحات هو أول ما ينبغي البدء به في أي نظر علمي
يتحرى الدقة والوضوح ويتغى تحقيق الثمرة والفائدة وضمان
التواصل الفعال.

وقد أكد رواد الفكر الإسلامي هذا الأمر في بحوثهم النظرية والتطبيقية، ومما يحضرنى في هذا الباب، وهو من الأوليات التي يحفظها المتعلم في بداية الطلب، قول الصبان في حاشيته على شرح الأشموني لألفية ابن مالك الشهيرة:

إن مبادي كل فن عشرة الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبة والواضع والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ومن درى الجميع حاز الشرفا
وقد أكد المقرئ صاحب نفح الطيب هذه المبادئ بقوله:

من رام فناً فليقدم أولاً علماً بحد ثم موضوع تلا
وواضع ونسبة وما استمد منه وفضله وحكم يعتمد
واسم وما أفاد والمسائل فتلك عشر للمنى وسائل
وبعضهم منها على البعض اقتصر ومن يكن يدري جميعها انتصر
فأول ما يُبتدأ به في أي فن أو علم أو عمل، هو ضبط الحدود
والمفاهيم وعلامات الطريق، لتتضح الرؤية وتظهر معالم الطريق،
وتتيسر سبل تحقيق الثمرات.

فالمفاهيم - كما يقال - معالم، والحدود سدود، تسدد النظر وتمنعه
من التيه والضلال، وذلك ما نبه إليه رواد الفكر الغربي الحديث
ابتداءً من دكارت ودركايم وماكس فيبر ولايبنتز وغيرهم.

والبحث في لفظ «الجاهحة» وتأصيلها لغويًا واصطلاحياً يدخل في هذا
الشرط، ويخضع لهذا الاقتضاء، فلا يمكن استيعاب فهم الإنسان
العربي للجوائح التي اجتاحتها عبر التاريخ، ومعرفة مواقفه تجاهها
وتصوراته المختلفة حولها، الدينية والفلسفية والعلمية والشعبية



دون معرفة حضورها في لغته التي استعملها في النظر إليها وتداول مواقفها تجاهها؛ لأن اللغة وعاء الفكر والمجتمع والحضارة، تعكس جوهر الإنسان وأعماقه الداخلية، الفكرية والوجدانية، وترصد حركة المجتمع، وتعبر عن تفاعل الإنسان مع المحيط، لكن المعاجم العربية القديمة والجديدة غير كافية لتأصيل هذه الكلمة وضبط حدودها؛ لأنها تتميز بالسكونية والتكرار، ولا تهتم برصد معاني ودلالات المادة العربية تاريخياً وتداولياً.

وكذلك جهود مجامع اللغة العربية، فعلى الرغم مما أصدرته من معاجم لغوية واصطلاحية قيمة، فهي لا تشفي الغليل في هذا الباب.

ولذلك سنحاول في هذه المساهمة التأصيلية لهذه الكلمة لغة واصطلاحاً الجمع بين المقاربتين:

- المقاربة المعجمية التراكمية، نللم من خلالها ما تَدَخَّرُ المعاجم العربية من كلمات ومسميات ومعانٍ ودلالات لهذه اللفظة.

- المقاربة التاريخية التداولية، من خلال تتبع حضور هذه الكلمة في الثقافة العربية في مجالاتها المختلفة: الدينية، والأدبية، والتاريخية، والجغرافية، والعلمية، التي تمثل اللغة العربية في بعدها الحي، المتصل بالحياة، بعيداً عن بطون المعاجم التي ترقد فيها المادة اللغوية كما يرقد الأموات في القبور والأجداد.

أولاً: التأصيل اللغوي لكلمة «جائحة» في المعاجم العربية:

الجائحة لغة كما جاء في «تهذيب اللغة» للأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ: «المصيبةُ تحُلُّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله»^١.

١ - الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: جاح.



وهو نفس المعنى الذي ذكره الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ في معجم الصحاح: وهو «الاستئصال، يقال: جُحْتُ الشيءَ أَجُوْحُهُ، ومنه الجائحة، وهي الشدة التي تجتاح المال من سَنَةِ أو فتنة، يقال: جَاحَتْهُمُ الجائحةُ، واجتَاحَهُم، وجَاحَ اللهُ مالَهُ وأجَاحَهُ: أهْلَكَه بالجائحة».^١

وقد أكد ابن منظور المتوفى سنة: ٧١٣ هـ هذه المعاني والدلالات بتفصيل أوسع في معجم لسان العرب الذي استوعب التجارب المعجمية العربية التي سبقته حيث يقول: «الجوح: الإهلاك والاستئصال كالإجاحة والاجتياح، ومنه: الجائحة للشدة المُجْتاحَة للمال، وجَاحَ: عدَلَّ عن المَحْجَة^٢... وأصل الجائحة: السَّنَة الشديدة تجتاح الأموال، نقول: اجتَاح العدوُّ مالَ فلانٍ: إذا أتى عليه، والجَوحُ: الهلاك».^٣

فلفظ الجائحة كما ورد في هذه البيانات اللغوية، وفي المعاجم العربية عامة ترجع إلى جذرين لغويين هما: الجَوْحُ والجِيْحُ، وما يتفرع عنهما من صيغ واشتقاقات صغرى وكبرى، ويدلان على معنى واحدٍ تتعدد حقاوله الدلالية، وهو الكارثة العظمية التي تصيب الانسان في صحته وماله وزرعه وممتلكاته وأمنه فتجتاحه كلُّه، ولا تبقي منه عينا ولا أثرا.

وتكون أيضا بالبرْدِ يقع من السماء إذا عظم حجمه برّدا هالكا، فيكثر ضرره، وبالبرْدُ المحرق أو الحر المفرط.

١ - الجوهري، الصحاح، مادة: جوح.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، مادة: جوح.

٣ - نفسه: مادة: جوح.



وهذا المعنى في اعتقادي أعم من الوباء الذي يختص أساسا بالمرض المعدي الشامل الذي لا يبقى ولا يذر، فمما جاء في مادة: وبأ في لسان العرب: «الْوَبَاءُ: الطاعون بالقصر والمد والهمز، وقيل: هو كُلُّ مَرَضٍ عَامٍّ، وجمعُ الممدود أَوْبِيَّةٌ»^١ وذلك ما ورد في الصحاح أيضا في هذه المادة؛ يقول الجوهري: «الْوَبَاءُ، يَمُدُّ وَيُقَصِّرُ: مَرَضٌ عَامٌّ»^٢ وكلا اللفظين: الجائحة، والوباء يدل على العموم والشمول، لكن الجائحة أعم وأشمل».

ثانيا: المعنى التداولي للفظ الجائحة:

١ - الجائحة في الشعر العربي:

الشعر ديوان العرب، ومرآة حياتهم، وخلاصة فكرهم ووجدانهم ومواقفهم ورؤيتهم للكون والحياة، ولذلك اعتمده علماء التفسير مرجعا معجميا أساسيا في فهم القرآن وتقريب معانيه، يقول الخطيب التبريزي في (شرح ديوان الحماسة): «وعن سعيد بن جبیر، قال: سمعنا عبد الله بن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا؟»

وعن عكرمة، قال: ما سمعت ابن عباس فسّر آية من كتاب الله عزّ وجلّ إلا نزع فيها بيتا من الشعر، وكان يقول: إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر فإنّه ديوان العرب»^٣. وكان حريصا على تعلّم الناس لشعر الجاهلية لمعرفة ما يعسر عليهم فهمه من غريب القرآن، فقد روى السيوطي في (المزهر) عنه

١ - ابن منظور، لسان العرب، لسان العرب، مادة: وبأ.

٢ - الجوهري، الصحاح في اللغة، مادة: وبأ.

٣ - الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة: ٣/١.



قوله: «إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»^١.

انطلاقاً من هذه المرجعية القوية لهذا الفن الأصيل في لسان العرب وثقافتهم، وردت في الشعر كلمة الجائحة والوباء وما يتصل بهما من ألفاظ ودلالات ومعانٍ في قصائد كثيرة، وفي مقامات مختلفة، وخاصة في مقام الرثاء بمختلف فنونه، رثاء الأشخاص والمدن والدول والممالك، وكلها تفيد معنى المصيبة، والنازلة والداهية التي تجتاح الإنسان وما يتصل به من ثمر ونخل وحيوان وعمران.

ومن الأبيات التي وردت بهذا المعنى، قول هُناة بن مالك بن قهم الأزدِي (ت ٤٠٣ ق هـ)، في رثاء أبيه:
حَلَّتْ عَلَى مَالِكِ الْأَمْلَاقِ جَائِحَةٌ

هَدَّتْ بِنَاءَ الْعُلَا وَالْمُجْدَ فَاَنْفَصَدَا^٢

ومنها قول قُوس بن ساعدة الإياديّ (ت: ٢٢ ق هـ) (في فتك الدهر بالرجال:

وَأَبَادَ أَفْرِيْقَيْسَ بَعْدَ مَقَامِهِ

فِي الْمُلْكِ بِالْمُسْتَعْرِقِ الْمُجْتَا حِ^٣

والمجتاح هنا اسم فاعل بمعنى المُستأصل.

١ - السيوطي، المزهر: ٢٠٣/٢.

٢ - شعراء عمان: تحقيق أحمد محمد عبيد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠، ص: ٩٠، وكشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، الشيخ سرحان بن سعيد الإزكوي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط. ٢، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج: ٣، ١٤٩/١ - الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة: ٣/١.

٣ - شعراء النصرانية، لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠، ج: ٢١٧/٢.



ومنها قوله أيضا في سياق آخر:

لا تَأْمَنَنَّ مَكَرَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ

أودى الزمانُ بِشَمْرِ الصِّيَاحِ

مِنْ بَعْدِ مُلْكِ الصِّينِ أَصْبَحَ هَالِكَا

أَكْرِمَ بِهِ مِنْ هَالِكِ مُجْتَاكِ^١

ومن ذلك أيضا قول الأعشى:

فَصَبَّحَتْهُمْ مِنَ الدَّوَاهِي

جَائِحَةً عَقِبَهَا الدَّمَارُ

ومنه أيضا قول مسلم بن الوليد الشهير بصريع الغواني:^٢

خَلِيفَةَ اللَّهِ إِنَّ النِّصْرَ مُقْتَصِرٌ

عَلَيْكَ مُذْ أَنْتَ مَبْلُوءٌ وَمُخْتَبِرٌ

لَقَدْ بَعَثْتَ إِلَى خَاقَانَ جَائِحَةً

خَرَقَاءَ حَصَاءَ لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ

وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء المعري مستعملا لفظ البواء

في التعبير عن نظرتة السوداوية للحياة:

مهلا أَمِنْ وَبِإِ فَرَرْتَ وَهَلْ تَرَى

فِي الدَّهْرِ إِلَّا مَنْزِلًا مَوْبُوءًا؟^٣

١ - فُسن بن ساعدة الأيادي؛ حياته خطبه شعره، أحمد الربيعي، مطبعة النعمان، بغداد، ١٩٨٤، ص ٣٤٩.

٢ - مسلم بن الوليد، الديوان: ٢٥٤.

٣ - أبو العلاء المعري، اللزوميات، ط العلمية، ٤٨/١.



من خلال هذه النماذج الشعرية التي تمثل ثمانية قرون من تاريخ الشعر العربي، لم يتغير معنى الجائحة وما لها من مرادفات ومشتقات، ولكنه ظل يفيد المصيبة والداهية التي تجتاح الإنسان، فلا يستطيع لها رداً، ولا يجد أمام تسلطها وقهرها غير الصبر والرضا بقضاء الله.

٢ - الجائحة في القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الجامع للغة العربية في صورتها المثالية التي أوحاها الله على لسان جبريل عليه السلام لرسوله الكريم، وهو أصل اللغة ومنبعها الصافي، وبصرف النظر عن موضوع اللغة العربية فهي إلهام أم اصطلاح؟ يمكن القول بدون احتياط أن القرآن الكريم هو معجم من لا معجم له؛ يقول تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^١.

لم ترد كلمة الجائحة ولا الوباء في القرآن بنفس المادة ونفس الصيغة، ولكنها وردت معنى ودلالة وقصة وعبرة وحكمة، كما نجد في كثير من الآي والسور التي تتحدث عن الجوائح التي اجتاحت كثيرا من الأقوام والشعوب البائدة، كعاد وثمود ولوط وقوم نوح وقوم فرعون وموسى وغيرهم، ومن السور التي نبه عليها المفسرون في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^٢.

١ - سورة النحل، الآية: ١٠٣.

٢ - سورة البقرة الآية: ٢٤٣.





فقد ذهب كثير من المفسرين، ومنهم الطبري^١ وابن كثير في «البداية والنهاية» إلى أن هؤلاء القوم المذكورين في الآية، كانوا في قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا دَاوْرْدَانُ قِبَلَ وَاسِطٍ وَقَعَ بِهَا الطَّاعُونَ، فَهَرَبَ عَامَهُ أَهْلِهَا، فَنَزَلُوا نَاحِيَةَ مِنْهَا، فَهَلَكَ مَنْ بَقِيَ فِي الْقَرْيَةِ وَسَلِمَ الْآخَرُونَ، فَلَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ الطَّاعُونَ رَجَعُوا سَالِمِينَ، فَقَالَ الَّذِينَ بَقُوا: أَصْحَابُنَا هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْزَمَ مِنَّا لَوْ صَنَعْنَا كَمَا صَنَعُوا بِقَيْنَا، وَلَئِنْ وَقَعَ الطَّاعُونَ ثَانِيَةً لَنُخْرِجَنَّ مَعَهُمْ.

فَوَقَعَ فِي قَابِلٍ فَهَرَبُوا وَهُمْ بِضَعَّةٍ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا حَتَّى نَزَلُوا ذَلِكَ الْمَكَانَ وَهُوَ وَادٍ أَفِيحٌ فَتَادَاهُمْ مَلَكٌ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي وَآخِرُ مَنْ أَعْلَاهُ أَنْ مَاتُوا فَمَاتُوا حَتَّى إِذَا هَلَكُوا وَبَقِيََتْ أَجْسَادُهُمْ مَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ يَتَفَكَّرُ فِيهِمْ .. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: تَرِيدُ أَنْ أُرِيكَ كَيْفَ أُحْيِيهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنَّمَا كَانَ تَفَكَّرُهُ أَنَّهُ تَعَجَّبَ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ لَهُ نَادِ فَنَادَى: يَا أَيُّهَا الْعِظَامُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمِعِي فَجَعَلَتْ الْعِظَامُ يَطِيرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ حَتَّى كَانَتْ أَجْسَادًا مِنْ عِظَامٍ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ نَادِ: يَا أَيُّهَا الْعِظَامُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَكْتَسِبِي لَحْمًا، فَكَتَسَبَتْ لَحْمًا وَدَمًا وَثِيَابَهَا الَّتِي مَاتَتْ فِيهَا، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: نَادِ، فَتَادَى: أَيُّهَا الْأَجْسَادُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقُومِي فَقَامُوا»^٢.

٣. الجائحة في الحديث النبوي:

الحديث النبوي يمثل قمة البلاغة العربية ومستودع بيانها وسحرها،

١ - تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف، المجلد: ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤ص: ١١١.
٢ - ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦، ٣/٢.

وذلك لما أوتيهِ الرسول ﷺ من أدوات البلاغة والبيان، فقد ولد في قريش، ورضع البلاغة من سعد، وتربى في أحضان القرآن، ولذلك يعتبر الحديث النبوي الشريف معجماً متمماً للقرآن، فإذا كان القرآن الكريم معجماً من لا معجم له، فالحديث النبوي الشريف هو بيان من لا بيان له، وبلاغة من لا بلاغة له.

وقد وردت فيه لفظة جائحة في عدة سياقات، منها: قوله ﷺ: {لَوْ بَعْتُ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا، فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ؟} ^١.

فمعنى الجائحة في هذا الحديث يتصل بالمصيبة التي تلحق الغلال، وهو من المعاني الواردة في المعاني المعجمية لهذه الكلمة. وقد دعا الرسول ﷺ الناس إلى الالتزام بالحجر الصحي إذا ظهر الطاعون:

ومما رواه البخاري في صحيحه في هذا الباب حديثه عن قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين خرج إلى الشام، فلما وصل إلى منطقة قريبة منها يقال لها: (سرغ)، بالقرب من اليرموك، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن نُقَدِّمَهُمْ على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعاهم فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع

١ - صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج: ١/١١٩٠.





لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعاهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقدِّمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرايتَ لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه}، قال: {فحمد الله عمر ثم انصرف}.^١

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: {لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون}، قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: {غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشاهد، والفرار منها كالفرار من الزحف}.^٢

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: {الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف}.^٣ رواه أحمد.

١ - صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

٢ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث: ١٩٥٢٨.

٣ - سنن الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون.

واعتُبرت هذه الأحاديث أصلاً لعدة أحكام، منها:

١ - أنها من موجبات تلقي الصدقة، ففي صحيح مسلم من كتاب الزكاة باب من تحلُّ له المسألة: عن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحملت حمالةً، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: {أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها}، قال: ثم قال: {يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتٌ يأكلها صاحبها سحتاً}.^١

٢ - أنها من موجبات إلغاء وفسخ بيع الغلة والثمار؛ ففي صحيح مسلم كتاب المساقاة باب وضع الجوائح عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: {لَوْ بَعْتْ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا، فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ؟}.^٢ وغيرها من الأحكام التي تعتبر أصولاً لكثير من القوانين والتشريعات الحديثة، كما سنرى في القانون الإماراتي.

٤. الجائحة في اصطلاح الفقه:

الفقهاء هم القائمون على أحكام الشريعة الإسلامية وحدودها

١ - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، رقم الحديث: ١٨٠٦.

٢ - صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب وضع الجوائح، رقم الحديث: ٣٠٠٤.





وقواعدها، وقد كانوا جميعا علماء موسوعيين، يجمعون بين الإحاطة باللغة العربية وفنونها وعلومها إلى جانب إحاطتهم بعلوم الشريعة، وقد أعطوا لكلمة الجائحة بعدا آخر أكثر دقة وضبطا، ونقلوها من مستوى الاستعمال اللغوي المعجمي إلى مستوى الاصطلاح بما تفيده من معاني التوافق والضبط، فصارت عندهم، وفي أدبياتهم تفيد مصطلحا واضحا لا مشاحة فيه ولا خلاف ولا جدال.

يقول ابن القاسم من فقهاء المالكية وتبعه أكثر الفقهاء: الجائحة كل شيء لا يستطاع دفعه لو علم به، سماوي، كالبرد والحر، ومثل ذلك ريح السموم، والثلج، والمطر، والجراد، والفئران والغبار، والنار ونحو ذلك، أو غير سماوي وجيش.

وعرفها الشافعية والحنابلة بأنها كل ما أذهب الثمرة أو بعضها بغير جناية آدمي، كريح ومطر وثلج، وبرد، وجليد، وصاعقة، وحر، وعطش ونحوها.

يقول الشيخ خليل، وهو من فقهاء المالكية رحمه الله في نفس المعنى: «وَهَلْ هِيَ مَا لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ؟ كَسَمَاوِيٍّ وَجَيْشٍ أَوْ وَسَارِقٍ خِلَافٌ».

وفي معنى الجائحة في العرف الشرعي قال ابن عرفة: «ما أُتْلِفَ من معجوز عن دفعه عادة قدرا من ثمر أو نبات بعد بيعه» (حدود ابن عرفة بشرح الرصاع كتاب الجوائح (فقوله: «من معجوز» من لبيان الجنس الذي وقعت عليه ما، والمعجوز عن دفعه عادة كالبرد والنار والريح والغرق، وأخرج به ما لم يعجز عن دفعه فليس إتلافه من الجوائح).^١

١ - شرح حدود بن عرفة، تحقيق: محمد أبو الأصفان والطاهر المعموري، القسم الأول، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣، ص: ٣٩٢.

ويؤكد هذا المفهوم ما قاله ابن عاصم في تحفته:

وَكُلُّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ الدَّفْعُ لَهُ جَائِحَةٌ مِثْلُ الرِّيَّاحِ الْمُرْسَلَةِ
والجيشُ معدودٌ من الجوائح كِفْتِنَةٌ وَكَالْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
فَإِنْ يَكُنْ مِنْ عَطَشٍ مَا انْفَقَا فَالْوَضْعُ لِلثَّمَنِ فِيهِ مُطْلَقًا
وإنْ تَكُنْ مِنْ غَيْرِهِ فِي الثَّمَرِ مَا بَلَغَ التُّلْتِ فَأَعْلَى الْمُعْتَبَرِ
وكلُّها البائعُ ضامنٌ لها إنْ كَانَ مَا أُجِيجَ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ^١

فمصطلح الجائحة - كما يستفاد من هذه النصوص الفقهية والأحكام المستنبطة منها- أنها كل ما لا يستطيع دفعه من الآفات طبيعية أو سماوية أو بشرية، وغيرها، ولا يختلف هذا المفهوم كثيرا عن المفهوم اللغوي لهذا اللفظ.

٥ - في المؤلفات التاريخية والرحلية:

استعمل المؤرخون والرحالة هذه الكلمة وما يتفرع عنها من كلمات في كتاباتهم التاريخية والجغرافية وذلك لاشتغالهم بتتبع حوادث الزمان ورصدهم لتقلباته وأحواله، نفعًا وضرًا، وسنقتصر على ذكر بعض النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة لتبين فهمهم لها، وتقديرهم لمعانيها ودلالاتها.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية في رصد أحداث سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المطيع لله: «وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَقَعَ غَلَاءٌ شَدِيدٌ بِبَغْدَادٍ..... وكثر الوباء في النَّاسِ حَتَّى كَانُوا لَا يَدْفِنُونَ أَحَدًا أَحَدًا، بَلْ

١ - تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي، تحقيق: محمد بن عبد السلام محمد، دار الآفاق العربية، ط ١، ٢٠١١، ص: ٦٢.





يُتْرَكُونَ عَلَى الطُّرُقَاتِ ... وَأَنْتَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ
مَاتَ فِي الطَّرِيقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَدَّةٍ»^١.

ويقول في بيان سرد أحداثِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ: «وفيها
رجع غلاء شديد على الناس وخوفٌ ونهبٌ كثيرٌ ببغداد، ثم أعقب
ذلك فناءٌ كثيرٌ بحيثُ دُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِغَيْرِ عَسَلٍ وَلَا تَكْفِينِ،
.. وَعَمَّ هَذَا الْوَبَاءُ وَالْغَلَاءُ مَكَّةَ وَالْحِجَازَ وَدِيَارَ بَكْرٍ وَالْمَوْصِلَ وَبِلَادَ
الرُّومِ وَخُرَّاسَانَ وَالْجِبَالَ وَالذُّنُبَا كُلَّهَا»^٢.

وقد وقف ابن خلدون في تاريخه على لحظات قاسية من تاريخ
الأوبئة والطواعين في العالم الإسلامي تقشعر لذكرها الأبدان، منها
مجاعة عام الرمادة وطاعون عمواس وغيرها^٣.

فكلمة جائحة حاضرة بقوة في كتب التاريخ العربي الإسلامي؛
لأنها اهتمت برصد كل ما يتصل بالإنسان والحياة، نفعا وضرا، وفي
مقدمتها الأمراض والطواعين والأوبئة، وقد ألفت في هذا الباب
مؤلفات كثيرة منها: «تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين
١٨ و ١٩» للبرزاز،^٤ و«الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة والإمبريالية»
لشeldon واتس، وكتاب «المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين ١٦ و ١٧
لبرنار رُوذْبَرْجِي وحميد التريكي»^٥ وغيرها.

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، لبداية والنهاية تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث
العربي، الطبعة: ١٤٠٨/١ هـ - ١٩٨٨ م، ج: ٢٤١/١١.
٢ - نفسه: ٨٦/١٢.

٣ - عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن
عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ج: ٢ /
٥٥٣ - ٥٥٤

٤ - محمد الأمين البرزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٨ و ١٩،
مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٣ م.

٥ - ترجمة عبدالرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، ط: ٢٠١٠/٢.



أما الرحلات وكتب التراث الجغرافي العربي فلا تكاد تخلو من ذكر هذه الكلمة ومرادفاتها ومشتقاتها، وكثيرا ما تأتي في سياق الحديث عن الحجر الصحي الذي اصطلح عليه بـ«الكرنتينة»، أي مدة الحجر الصحي التي تبلغ أربعين يوما، وفي رحلة ابن بطوطة، ما يشفي ويفيد، فقد قَدِّمَ فيها وصفا دقيقا للطاعون الأسود الذي ضرب دمشق والقاهرة وغزة، وصورا مأساوية لهذا الوباء الفتاك الذي مسح ثلث سكان أوروبا من خريطة الوجود، ففي دمشق كان يموت يوميا ألفان من الناس، في حين بلغت الوفيات في مصر أربعاً وعشرين ألفاً في يوم،^١ كذلك رحلة ابن طوير الجنة الشنقيطي المسماة بالمنى والمنة، ورحلة الشيخ ماء العينين الحجازية وغيرها. ومما يحضرنى من رحلة ابن طوير الجنة حديثه المتكرر حول الكرنتينة، أي الحجر الصحي؛ يقول في ذكر خضوعه لهذا الحجر: «ومكثنا في فرن آخر رجب وشعبان كله، وأدخلونا الكرنتين عندهم، ... ومعنى الكرنتين أن كل من جاءهم في البحر يحبسونه أربعين يوما، الإنسان ثلاثون والسلعة عشرة أيام بعد صاحبها، وجملة ذلك أربعون يوما».^٢

لفظ الجائحة حاضر في هذه النصوص التاريخية والجغرافية لفظا ومعنى ومشتقات، وقد ورد فيها مقترنا بالوباء والطواعين والأمراض والمليمات، وكلها تفيد المعاني التداولية لهذه الكلمة.

١ - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج ١/٢٢٧ - ٢٢٩ و ٢٢٠/٤ فما بعدها.
٢ - ابن طوير الجنة، رحلة المنى والمنة، تحقيق محمد الطريف، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه للتنمية والتبادل الثقافي، ٢٠١١ ط ١، الرباط، ١٤٣.

٦ - في الاصطلاح الطبي:

كتبت مؤلفات كثيرة في الطب في تشخيص الأوبئة والأمراض الفتاكة والطواعين والأوبئة منذ أبقراط، وهي تختلف في تسمية هذه الأمراض باختلاف أنواعها، ولا يسمح الوقت المحدد لهذه المساهمة في عرضها، ويكفي أن نعود لكتاب «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وفهرست ابن النديم، وغيرها من الفهارس للتعرف على المصنفات التي كتبت في تشخيص الأوبئة والجوائح البشرية.

وقد أصبح لفظ الجائحة مرادفا للوباء العالمي -خاصة من قبل منظمة الصحة العالمية- التي تعتمد في وصف الأمراض المعدية، وذلك عندما يلاحظ تفش واضح لها وانتقال من شخص إلى آخر في عدد من البلدان في العالم في الوقت نفسه.

وهو ويقابل بالإنجليزية لفظ: Cataclysm والفرنسية Cataclysmه وهو ويقابل بالإنجليزية لفظ: Catastrophe والفرنسية، وهي دلالة عامة تستوعب الداء وغير الداء مما يصيب الإنسان، فيؤذيه تماما كما هو في اللفظ العربي «جائحة» التي تتضمن الجدب والوباء القاتل وذهاب المال واستئصال الصحة ونحو ذلك.

كما يقابل أيضا لفظي: Pandemic بالإنجليزية و Pandémi بالفرنسية؛ للدلالة على المعنى نفسه إذا تعلق الأمر بالوباء القاتل السريع الانتشار حصرا، وليست للكلمتين الدلالات اللغوية سالفة الذكر في الأصل اللغوي العربي المنحدر من الجذرين «جَوْح» و«جَيْح»..

وقد اكتسب هذا المصطلح بعدا عالميا بعد تفشي جائحة كورونا حيث صرح رئيس منظمة الصحة العالمية الدكتور تيدروس أدهانوم



غَيْرِيَسُوس، بمناسبة انتشار هذا المرض المستجد بأن المنظمة ستستخدم هذا المصطلح لسببين رئيسين هما: سرعة تفشي العدوى واتساع نطاقها والقلق الشديد إزاء «قصور النهج الذي تتبعه بعض الدول على مستوى الإرادة السياسية اللازمة للسيطرة على هذا التفشي للفيروس».

٧ - الجائحة في القانون:

لايسمح الوقت بالوقوف على الدلالة القانونية لمصطلح الجائحة، ورأي فقهاء القانون فيها وتصورهم لها، وهناك نصوص قانونية كثيرة حُررت بشأنها أهمها القانون الاتحادي الصادر بالجريدة الرسمية العدد ٥٧٢ السنة الرابعة والأربعون عدد: ١٤ لسنة: ٢٠١٤ بشأن مكافحة الأمراض السارية، فقد فصل هذا القانون في تعريف بعض الجوائح وبعض المسميات والمصطلحات القانونية المرتبطة بها، مثل^١:

المرض الساري: وهو: المرض المعدي الذي ينجم عن انتقال عامل ممرض أو منتجاته السمية أو إفرازاته بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الغير وإصابته بالمرض.

والوباء، وهو طارئة صحية تتمثل في ظهور حالات من مرض سار بين مجموعة من الناس في منطقة جغرافية محددة خلال فترة زمنية محددة، بزيادة واضحة عن المتوقع الطبيعي مقارنة بفترة مماثلة للفترة السابقة في ذات البقعة والزمن لذات المنطقة، وتسبب قلقاً على المستوى الوطني، والحجر الصحي وغيرها من

١ - ٤٥٥٤٨٤٦٧- http://www.alkhaleej.ae/economics/page/٤٥٥٤٨٤٦٧-٤٥٥٤٨٤٦٧

٩d-٩٦٩d٩٥٨٤٦٧١fe#sthash.xRaAdmL.dpuf





المصطلحات التي تدخل جميعها في الدلالة على القوة القاهرة. وذلك ما نجده أيضا في قانون الالتزامات والعقود المغربي في الفصل ٢٦٩ حيث أعطى المشرع المغربي تعريفا للقوة القاهرة، و«هي كل أمر لا يستطيع الإنسان أن يتوقعه، كالظواهر الطبيعية والفيضانات والجفاف، والعواصف والحرائق والجراد، وغارات العدو وفعل السلطة، ويكون من شأنه أن يجعل تنفيذ الالتزام مستحيلا.

ويتضح من مفهوم القوة القاهرة في قانون الالتزامات والعقود الإماراتي والمغربي أن المعنى اللغوي والمفهوم الشرعي للجائحة ثوابان فيه حاضران بقوة في ثناياه كما ورد في الأحكام الفقهية السابقة الذكر.

والملاحظ في هذا الباب أن القانون الإماراتي كان سباقا إلى إدخال جائحة كورونا في معجمه القانوني حيث نص في المادتين: ٢٧٣ و٢٤٩ من قانون المعاملات المدنية على أن المجتمع في الإمارات وبشكل أعم المجتمع العربي قد يواجه حالات كثيرة تنطبق عليها الآثار القانونية للقوة القاهرة، وقام بضبط هذه الحالات والتنصيب عليها، وهذا يؤكد زيادة هذه الدولة وقيادتها الرشيدة في مواكبة المستجدات وسبقها لاتخاذ التدابير العلاجية لصيانة الحقوق وضمان الأمن النفسي والروحي والاجتماعي والاقتصادي للمؤسسات والأفراد، بما يرضي الجميع بشكل ودي يراعي الظروف الاقتصادية والمناخية والصحية العالمية.

هذه رحلة سريعة في بطون المعاجم وبعض النصوص القرآنية والحديثية والفقهية والتاريخية والجغرافية والقانونية التي تداولت لفظ الجائحة لغويا واصلاحيا، ونخلص من النظر فيها إلى القول:

إن هذه اللفظة في مرادفاتنا المختلفة واشتقاقاتها المتعددة المعجمية والاصلاحية تلتقي في الدلالة على القوة القاهرة التي تحدث ارتباكاً في الحياة في مستوياتها المختلفة الاقتصادية والصحية والاجتماعية، من كوارث طبيعية وأوبئة وأمراض فتاكة وطواعين وملمات، وغيرها، وأن تداولها في اللغة والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وباقي مجالات الثقافة العربية يعكس قوة حضور الجوائح في العقل العربي، ورغبته الأكيدة في تحديها والتحكم فيها، وتلك سنة الله في هذا العالم منذ أن خلق هذا الكون ومنح خلقه العقل والروح لشكره وعبادته والمحافظة على ما ائتمنه عليه من خيرات ونعم.

والسلام عليكم ورحمة الله.



التعليم عن بعد: رهانات وتحولات منهجية

د. محمد جودت

أستاذ اللغة العربية وآدابها

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية



هذه المداخلة التي أسهم بها في هذه الدروس الرمضانية التي تنظمها جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية هي بعنوان: تجربة التعليم عن بعد بدلا من البعد عن التعليم: رهانات وتحولات منهجية. وتدخل هذه المشاركة في السياق العام الذي اقترحتة الجامعة مشكورة، لتكون المؤسسات الأكاديمية مواكبة للحياة بكل تفاصيلها: تفكيرا وتحليلا وتنظيرا واستشرافا...

وتدور محاور هذه المداخلة في:

١ - مقدمة حول تجربة التعليم عن بعد.

٢ - تأصيل مفهومي للدراسة عن بعد.

٣ - التعلم عن بعد وسلطة الأندراغوجيا.

أ. التحولات السياقية ضرورة واقعية.

ب. التحولات النفسية.

ج. التحولات التعليمية.

٤ - الأندراغوجيا:

أ. التعريف.

ب. الهدف.

ج. المكونات.

٥ - مسارات معاصرة:

أ. فليب ميريو.

- التعلم عن بعد يعمق الفوارق الاجتماعية.

- متعة التعلم.

ب. غاستون باشلار.

- المعرفة العلمية والمعرفة المشتركة.

- تربية العقل.

- تجاوز العوائق العلمية.

خاتمة وتأسيس في الثقافة الإسلامية.



١ - مقدمة حول تجربة التعليم عن بعد:

لطالما كانت النكبات باعثا على إعلاء طبقات وإنزال أخرى، وقد أبانت الأسرة التعليمية عن أصالة معدنها وأهليتها في حمل رسالة العلم والمعرفة، ومكانتها السامقة داخل المجتمع وهويتها القائمة على ترسيخ قيم البناء المعرفي للإنسان.

وتعد هذه المداخلة تفكييرا موضوعيا في تجربة التعليم عن بعد بدل البعد عن التعليم، فاختيار هذا العنوان ليس اعتباطا أو عرضيا، وإنما هو اختيار مقصود قائم على سببين:

الأول مرتبط بالتعليم عن بعد باعتباره ضرورة حتمية اقتضاها السياق الراهن.

والثاني مرتبط بظاهرة البعد عن التعليم التي استفحلت في المجتمعات العربية مثلما تؤكد ذلك إحصاءات الانقطاع عن التعليم في هذه المجتمعات بسبب اعتماد الطرق التقليدية التي يمكن لسياق التعلم عن بعد أن يفرض علينا تجاوزها.

فالعنوان (التعليم عن بعد بدل البعد عن التعليم) يحمل دلالة واضحة تحيل على ضرورة التفكير العميق في رهانات هذا النوع من التعليم الذي فرضته التحولات الاجتماعية الراهنة التي يعيشها العالم أمام جائحة المرض، هذا الوضع جعل المؤسسة التعليمية أمام خيارين لا ثالث لهما، إما البعد عن التعليم واعتبار الفترة عطلة مفتوحة إلى أن تعرف نهاية هذا الوباء، وإما اختيار التعليم عن بعد وهو الأمر الحاصل في كل دول العالم.

لكن بأي آلية وبأي مقاربة ستتم عملية التعليم عن بعد؟

فهذا النوع من التعليم يقتضي مقاربات تعليمية جديدة تواكب



التحولات الاجتماعية الطارئة، ويستلزم آليات للتفكير في مجال التعليم الجامعي في زمن يفرض على هذه النخبة التخلي عن الأدوار التقليدية المرتبطة بالتدريس والانتقال إلى مرحلة التفكير المعرفي والأكاديمي الذي يفترض أن تمارسه هذه الطبقة التي كانت عبر التاريخ مفكرة ومنظرة ومتصالحة مع السياقات المجتمعية.

٢ - تأصيل مفهومي:

لابد من الوقوف عند التأصيل المفهومي لمصطلح التعليم عن بعد من خلال العودة إلى السياقات الثقافية والتاريخية التي أفرزت هذه المقاربة التعليمية، ذلك أن التعليم عن بعد ليس جديداً أو طارئاً على الحقل المعرفي التعليمي، بل إنه موجود في الثقافة الغربية منذ زمن بعيد، فقد عمل على توظيف هذه الآلية التعليمية وتطويرها العديد من الأساتذة والمفكرين الغربيين، من بينهم:

- الفرنسي شارل توسان الذي أسس لهذا المفهوم سنة ١٨٥٦، وهو أستاذ ومبتكر تدريس الفرنسية عن بعد في جامعة برلين.

-كوستاف لاكندشات، عضو جمعية اللغات ببرلين، الذي أسس مدرسة للتعليم عن بعد وتحديداً التعلم بالمراسلة.

كما تم تأسيس أول جامعة أمريكية للتعليم عن بعد سنة ١٨٧٤.

وفي العشرينات من القرن الماضي منحت أول تراخيص أمريكية للتعليم عن بعد لفائدة راديو تعليمي.

وستنطلق عملية التعليم عن بعد في الثمانينيات بشكل رسمي بتأييد من «مؤسسة العلم القومية» عبر استخدام الإنترنت.^١

كل هذا يفسر أن عملية التعليم عن بعد لها جذور في الثقافة

١ - ناهدة عبد زيد الدليمي: التعليم عن بعد: مفهومه وتطوره وفلسفته.





الغربية، وقد عرف هذا النوع من التعليم أيضا في الثقافة العربية، ونذكر في هذا الصدد المراسلات، بما هي فن ثقافي كانت له أهمية بارزة عند العرب، حيث أُلِّفت في أدب الرسالة كتب كثيرة باعتبارها نوعا من أنواع التواصل عبر الوسائط المتاحة آنذاك.

أما في العصر الحديث فقد تدخلت العديد من المنظمات الدولية لتأطير وتحديد هذا النوع من الممارسة تعريفًا ومتابعة، إذ عرفت منظمة اليونيسكو مثلا التعليم عن بعد بأنه «عملية تربوية يتم فيها كل أو أغلب التدريس من شخص بعيد في المكان و الزمان عن المتعلم، مع التأكيد على أن أغلب الاتصالات بين المعلمين والمتعلمين تتم من خلال وسيط معين سواء كان إلكترونياً أو مطبوعاً»^١.

وعرّفته بعض الجمعيات الأمريكية المتخصصة مثل (الجمعية الأمريكية للتعليم عن بعد)، بأنه: «عملية اكتساب المعارف والمهارات بوساطة وسيط لنقل التعليم والمعلومات متضمن في ذلك جميع أنواع التكنولوجيا وأشكال التعلم المختلفة للتعلم عن بعد»^٢. وقد كان هذا النوع من التعليم في بداية ظهوره محاطا ببعض العوائق والشكوك والتردد، فالجامعات التي اتخذت المبادرة وتبنت فكرة التعليم عن بعد لم تستطع تجاوز النظرة التقليدية التشكيكية في قيمة هذا النوع من التعليم في مجتمعات كان لها تمثّل عن المباشرة في التعليم؛ لذلك، لم تتخذ لنفسها ذلك البعد الرمزي للتعليم مثلما هو الأمر في باقي الجامعات ذات الممارسة التعليمية المباشرة.

١ - تعريف التعليم عن بعد في منشورات اليونسكو عبر الشبكة العنكبوتية.

٢ - ويكيبيديا.

لكن مع مرور الزمن وفي ظل هذه الظروف الطارئة، أصبح التعليم عن بعد ضرورة أكيدة وملحة.

من هنا، أصبح لابد من التفكير في آلية تعليمية جديدة تركز أساسا على إرساء دعائم التعليم عن بعد وتضمن الاستمرارية التعليمية، وهي طرائق جديدة تخضعنا للتفكير الجدي في مقاربات جديدة تلائم الوضعية السوسيوثقافية للمجتمعات العالمية، وتقتضي تفعيل آليات للتفكير في هذه الوضعية ضمن سياق مجتمع عربي أيضا له خصوصياته.

ذلك أن المؤسسة التعليمية التقليدية تحولت إلى مؤسسات افتراضية تفرض شروطا جديدة، وتتطلب إمكانات جديدة أيضا لمواكبتها والتعامل معها، كما شكلت مجالا للتفكير سرعان ما تزعم الغرب مساراته في زمن بقيت الثقافة العربية تنتظر مشدوهة إلى البعد التقني دون التحول إلى البعد التنظيري: بدليل أن علماء الاجتماع والتربية تخصصوا تصدوا في المؤسسات الغربية للظاهرة تحليلا وتنظيرا كما سنرى.

٣ - التعلم عن بعد وسلطة الأندراغوجيا.

أ. التحولات السياقية ضرورة واقعية:

إن التعليم عن بعد يفرض علينا نوعا جديدا من الممارسة التعليمية تواكب التحولات الاجتماعية الراهنة التي أصبحت واقعا مفروضا، حيث انتقلنا من المباشرة والواقعية إلى الافتراض، فغياب المباشرة والحضور الفعلي، هو غياب أيضا للعنف الرمزي بكل تجلياته السيميولوجية، خاصة أن التعليم في الثقافات التقليدية مشوب بأنواع من العنف الرمزي القائم في مجموعة من السلوكات من قبيل



قسمات الوجه، وسياق اللغة الرمزية، والإحراج وسط المجموعة، وإفراد الطالب بممارسة عنفية رمزية كتركيز النظر أو التركيز على اللغة المعرفية وغيرها من الممارسات التي تحمل عنفا رمزيا، لكن التعليم عن بعد جعلنا أمام متعلم محاط بسياج ثقافي اجتماعي أنثروبولوجي تغيب فيه مجموعة من الشروط والعوامل الحاضرة في عمليات التعليم المباشر، وهذا ينقلنا إلى بعد آخر مرتبط بالعوامل النفسية التي يتضمنها هذا النوع من التعليم، فالمتلقي الآن أصبح حرا، كما أن الأستاذ انتقل من وضع الأستاذ الحارس داخل البنية التعليمية التقليدية إلى وضع الأستاذ المصاحب الذي فقد سلطة الرقابة المعرفية، مما جعل الطالب/ المتعلم أمام وضع جديد يقتضي موت سلطة التبعية، والتأسيس لسلطة المشاركة.

ب. التحولات النفسية:

لقد أصبحنا أمام تأسيس جديد في بناء التعلّيمات، لا يمكن أن يتمشى مع الممارسات التقليدية للتعليم، ذلك أن السياق الثقافي الانثروبولوجي يقتضي موت فترة الأستاذ الحارس، وموت سلطة التبعية، وتأسيس سلطة المشاركة والتعلم الحر، وبالتالي، التخلي عن البنية التعليمية التقليدية وتأسيس بنى تعليمية جديدة تواكب التطورات الراهنة، من خلال تبني المقاربة الأندراغوجية، وهي مقاربة علمية تربوية سنفصل فيها فيما سيأتي من محاور. ونشير ضمن السياق النفسي للمتعلم إلى الانعكاس الإيجابي لعملية التعليم عن بعد على نفسية الطالب/المتلقي، حيث تنتفي كل أسباب الارتباك والخجل الذي يعاني منه بعض الطلبة أثناء التعليم المباشر، والتي كانت تشكل لهم عائقا نفسيا يحول دون تحقيق التعلّيمات، أما مع التعليم عن بعد فقد أصبح الطالب حرا بعيدا



عن السلطة التقليدية للمؤسسة، وهنا أصبح من الضرورة بمكان تبني المقاربة الأندراغوجية لأنها الوحيدة الكفيلة باستيعاب كل التغيرات الحاصلة في العملية التعليمية التعلّمية.

إذن كل هذه التحولات ستنقلنا من سلطة تعليمية إلى عملية تعليمية تشاركية تحذف خلالها كل المعوقات النفسية للطالب، فينطلق في بناء تعلماته محاطا بحماية أنثروبولوجية واجتماعية تجعل منه محور العملية التعليمية، وتجعل من التعلم نشاطا اجتماعيا.

ج. التحولات التعليمية:

إن الراهنية الواقعية تلزمننا بالانتقال من الممارسة التقليدية إلى تعليمية تشاركية تقوم على المقاربة الأندراغوجية عوض البيداغوجيات التقليدية التي لا تزال تبناها الجامعات العربية، مما يجعلها خارج التطورات المعاصرة، وكأنها مؤسسات جامعية للكبار تبني طرائق تعليم الأطفال الصغار، ويفسر هذا المعنى مصطلح (بيداغوجيا) الذي يحيل على معنى تعليم الصغار.

أما الاندراغوجيا فهي علم يختص بتعليم الكبار من خلال فسح المجال لبنية تعليمية تبئر المتلقي وتعطيه حرية أكبر، بإخراجه من يد سلطة «الأستاذ الحارس»، عن طريق غياب المباشرة وما يترتب عنها من نتائج تتمثل في موت سلطة التبعية وتأسيس سلطة المشاركة؛ عبر تبني المقاربة الأندراغوجية التي تلائم المستوى الفكري للمتعلم، باعتباره طالبا جامعيا مشاركا في بناء التعلم، وليس وعاء للتلقي.

لذلك، أصبح من الضرورة الخضوع للتنظيرات المعاصرة والتخلي عن الأستاذية التقليدية، بل والتأسيس لمفهوم موت الشهادة، حيث



ستغدو شهادة الأستاذ التقليدي ميتة، فما عليه إلا أن يشيد بنية تعليمية قائمة على تكوين أندراغوجي جديد.

٤ - الأندراغوجيا:

بالرجوع إلى البحث في أصل مصطلح (أندراغوجيا) تطالعنا بعض المصادر والشبكات التواصلية تربط الأندراغوجيا بالتاريخ الأمريكي، حيث أشارت بعض المراجع إلى أنه كان «يسمى بهذا المصطلح منذ حوالي قرنين من الزمن، وقد أصبح شائعاً في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا على أنه الطرق والإستراتيجيات التي تهتم بتعليم الراشدين، و استخدم المصطلح من قبل الأستاذ الألماني «أليكساندر كاب» في عام ١٨٣٣.

وتطور المفهوم وصيغ في نظرية اسمها «تعليم الكبار» من قبل الأستاذ الأمريكي «مالكولم نولز»^١.



١ - مالكولم شيريد نولز (٢٤ أغسطس ١٩١٣ - ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧) مربي أمريكي اشتهر باعتماد نظرية الزغوجي، وهو عالم أمريكي له الفضل في تأسيس نظرية تعليم الكبار. لنولز الأثر الأساسي في تطوير نظرية التعلم الإنساني.

ولد في مونتانا وكان في صغره فردا كشافيا متحمسا. انتقلت العائلة إلى غرب بام بيتش في فلوريدا تخرج من ثانوية بام بيتش في عام ١٩٣٠. حصل على منحة دراسية من جامعة هارفارد حيث تخرج حائزا على درجة البكالوريوس في ١٩٣٤. بعد ذلك بوقت قصير، عمل في الإدارة الوطنية للشباب في ولاية ماساشوستس، وكان متزوجا من هولدا فورنيل التي التقى بها أثناء دراسته في جامعة هارفارد. في عام ١٩٤٠، تولى منصب مدير تعليم الكبار في جمعية الشبان المسيحية في بوسطن حتى استدعي للخدمة في الجندية في القوات البحرية للولايات المتحدة في عام ١٩٤٣. انتقل عام ١٩٤٦ إلى شيكاغو للعمل مديرا لتعليم الكبار في جمعية الشبان المسيحية في حين تابع دراسته للحصول على درجة الماجستير في جامعة شيكاغو، والتي حصل عليها في عام ١٩٤٩. بين عامي ١٩٥١ و ١٩٥٩ شغل منصب المدير التنفيذي لرابطة تعليم الكبار في الولايات المتحدة الأمريكية وتابع دراسته للحصول على درجة الدكتوراه في جامعة شيكاغو. في عام ١٩٥٩، قبل تعيينه كعضو هيئة التدريس في جامعة بوسطن وأستاذ مشارك في تعليم الكبار مع الحياة. وأمضى هناك ١٤ عاما. وأصبح عضوا في كلية التربية في جامعة ولاية كارولينا الشمالية في عام ١٩٧٤ لاستكمال الأربع سنوات المتبقية من العمل الأكاديمي قبل التقاعد، وبقي نشطا في هذا المجال حتى بعد تقاعده في عام ١٩٩٠. درس في جامعة فيلدينغ للدراسات العليا في سانتا باربرا، كاليفورنيا والتي تقدم شهادات في علم النفس السريري. بتصرف عن ويكيلبيديا.

وتستند الأندراغوجيا عند «نولز»، على أربعة مبادئ يجب توافرها في شخصية «المتعلم الراشد»، فيما أُضيف المبدأ الخامس فيما بعد، وتتلخص هذه المبادئ فيما يلي:

المفهوم الذاتي: أي أنه يجب على الشخص أن يعي الفرق بين الشخصية المنوطة بغيرها من الشخصية الإنسانية المُنقّادة ذاتياً. تجارب (بما فيها الأخطاء): لكونه شخصاً ناضجاً، فهو يقوم بجمع وتنمية التجارب حتى تصبح مصدراً متجدداً مساعداً على التعلّم. الاستعداد للتعلّم: لكونه شخصاً ناضجاً، فإنه يكون مستعداً لتعلّم المواضيع التي ترتبط مباشرةً مع عمله أو مع حياته الشخصية.

توجهات التعلّم: لكونه شخصاً راشداً، فإن وقته يحترم التغييرات من موضوع يمكن تأجيله إلى موضوع مستعجل لا يحتمل التأجيل، لذلك يكون توجهه نحو تعلّم مواضيع تركز على حل المشكلات أكثر من توجهه نحو التعلّم الموضوعي.

التحفيز للتعلّم: لكونه شخصاً راشداً، فإن التحفيز على التعلّم يجب أن يكون ذاتياً.

وقد اشتغل على تطوير هذه التصورات عدد كبير من الباحثين الغربيين، واهتمت بها مجموعة من المجلات المتخصصة، نذكر من بينها: مجلة Adult leadership، وهي مجلة علمية تعنى أساساً بتعليم الراشدين، أصدرت أعمالاً متعددة لمجموعة من الباحثين منذ ما يزيد عن نصف قرن من الزمن.

من بين هؤلاء الباحثين نجد Brookfield الذي اهتم في أعماله منذ سنة ١٩٨٦ بالأندراغوجيا، و Pratt الذي كرس معظم أعماله أيضاً للبحث في الأندراغوجيا منذ سنة ١٩٩٣، إلى جانب Malcolm



Miriam و Knowles في أعمالها الصادرة سنة: ١٩٩٣، بغض النظر عن اختلاف هؤلاء الباحثين في التصورات النظرية المؤسسة للمصطلح. من هنا، نعود لتأكيد منطلقنا في هذه الدراسة، والمتمثل في تبني مقارنة جديدة تستجيب للتحويلات الاجتماعية الراهنة، يقتضي الأمر تحديدا تبني المقاربة الأندراغوجية بديلا عن المقاربة البيداغوجية، لقدرتها على استيعاب السياقات المرتبطة بالمتعلم المشارك الحر، باعتبارها عملية تواصلية توافق النضج الفكري للطالب، لذلك، يعرفها البعض بأنها «علم مساعدة الكبار على التعلم». والإشارة هنا لدراسة مهمة نشرت عبارة عن مقال سنة ١٩٦٨: الأندراغوجيا وليس البيداغوجيا.

إن الأندراغوجيا علم وفن مساعدة الكبار على التعلم، في مقابل البيداغوجيا المرتبطة بتعليم الأطفال. وهذا يعني أن المقاربة التقليدية تمارس ممارسة تعليمية في غير مجالها باستعمال مفهوم البيداغوجيا مكان الأندراغوجيا. هذا فضلا عن مقاربات أخرى مختلفة: يرجع مثلا لدراسة (Miriam, ١٩٩٣) وغيرها من الدراسات المعاصرة.^١

إن هذه التنظيرات وغيرها كثير تلح على التحول إلى ممارسة خاضعة لأبعاد التعليم الأندراغوجي. وفيما يلي قراءة في أحد أبرز روادها.

٥ - مسارات معاصرة:

أفليب ميريو: من أهم المنظرين الذين اشتغلوا على الأبعاد التربوية في أزمة كورونا ومسألة التعلّم عن بعد؛ نجد الفيلسوف

١ - أبحاث معرفية عدد: ٤، ٢٠١٤.



وعالم التربية الفرنسي فليب ماريو.

ونسنتج -من خلال مقارنة حواراته على صفحات جريدة لوفيغارو وخصوصا حوارات إمانويل فرانس التي اطلعت عليها هذا الأسبوع- الانخراط العملي والتّنظيريّ للفلسفة الغربية وعلوم التربية للتحليل والتّنظير للظواهر ومواكبتها: وهذا يعني أن المؤسسة العلمية والأكاديمية ليست مجالاً للتدريس والتعليم فحسب، إنها انخراط فعلي للبحث والتّنظير. فهذا الرجل لا يعمل موظفاً في جامعة يتقاضى أجر المدرس التقليدي في جامعة ليون الثانية. بل إنه يأسس لوظيفة الأستاذ الباحث وليس الأستاذ الحارس الذي يخضع لطقوس عقاب الطالب التي تنتمي للقرون الوسطى ومازالت تخيم على مؤسساتنا.

ومن الطبيعي أن مهنة الأستاذ التقليدي المبنية على الكم المعرفي والبعيدة عن مستجدات التّنظير لا يمكن أن تخرج من سياق الأستاذ الملقن داخل فضاء بيداغوجي لا يتجاوز التّنظيرات التقليدية في قلعة عاجية لاتدرك المستجد.

ولو قمنا بتوزيع استمارة لمعرفة المطلعين منا على مستجدات التعليم عن بعد في ظل كورونا، وانطلاقاً من التّنظيرات الغربية سيكون الجواب مخجلاً لأننا حبيسو اليومي والتعليمي الكمي والتقليدي، وتلك قضية سوسيوثقافية تحتاج دراسة خاصة.

من هنا نشير إلى الإشارات الدالة التي اقترحها ماريو عن هذه الظاهرة، مبرزا أن التّعلم عن بعد في ظل هذه الظروف يعمق الفوارق الاجتماعية، بحكم أن الوسائل لدى المتعلم لها ارتباط بالوضع المادي الذي يمكن أن يشكل فارقاً، خصوصاً في المناطق



العالمية التي لا تملك إمكانات مادية أو عند طبقات اجتماعية معوزة.

- متعة التعلم: هذه من أهم إنجازات فليب ميريو، وهي بحق من أسباب نجاح التعلم في مؤسسات غربية تبنت تحبيب المتلقي عوض تطبيق نماذج التخلف من قبيل تقسيم الطلبة إلى ضعاف وغيرهم، واقتراح «خطط علاجية».

ولعل استعمال كلمات من حقل الأمراض له أكثر من دلالة سيميولوجية تخرجنا من تاريخ التحولات العلمية التي تعرفها المؤسسات التنظيرية والتربوية المتقدمة. ولعل تأليف كتاب جماعي في الغرب بعنوان «لذة التعلم» وقراءة أشكال العنف في مؤسسات أخرى مقابلة فارقة في زمن التنظير الناجح وحضور التقليدية. ولا أقول القدامة: لأن التاريخ الإسلامي مشرق بالنجاحات التربوية التي لا يتسع المجال لذكرها.

إن الأندراغوجيا مع هذه المفاهيم أضحت ضرورة منهجية للسير في نهج المؤسسات الأكاديمية الرائدة. حيث يصير الطالب وعلاقات التعلم منظومة مبنية على احترام المتلقي واختياراته.

من هنا يقترح ميريو تحليلاً نسقياً للتعلم، من خلال كتابه: لتتعلم ولكن كيف؟ « *apprendre oui mais comment* »؟

ويرى أن الوظيفة الأساسية للمدرسة، تكمن في إنجاح التربية، وليس إنتاج خطابات ديمآغوجية حول الفشل المدرسي. لذا على كل تفكير في فعل التعلم، التخلص من النزعة التطبيقانية، والاتجاه نحو تعبئة مختلف موارد الفلسفة وعلوم التربية.

أما الفعل الديداكتيكي، فينبغي أن يتأسس على تنظيم التفاعل بين



مجموع وثائق أو موضوعات، وبين مهمة للإنجاز.

فعمل المدرس هو تيسير التفاعل بين المتعلم وبين وضعية التعلم ليصبح لها معنى.^١

بل إن الممارسة التعليمية تتحول بفعل التحول التنظيري لتغيير وظائف وعلاقة المدرس والمتعلم ف«يصبح هم المدرس هو كيفية تحويل المعرفة المدرسية إلى طريقة للحب: حب المعرفة وحب التعلم. إن (المتلقي) هو المالك للسلطة، فلا أحد يمكن أن يلزمه بالتحرك وفق المعارف المدرسية، فهو الذي يستثير تلك المعارف وليس العكس. واهتمام المتعلم، هو أساس أي فعل تعليمي.

وبعبارة أخرى، انخراط المتعلم في سيورة التعلم هو ما يضمن تطوره، ولا أحد قادر على اتخاذ القرارات بدلا منه».^٢

ب: غاستون باشلار:

- المعرفة العلمية والمعرفة المشتركة: نصل الآن إلى بعد إبستمولوجي مع غاستون باشلار، فالتعلم عن بعد بما هو تعلم وسط حماية اجتماعية وأنثروبولوجية له إيجابياته سابقة الذكر، ولكنها مجال لانعاش العوائق على حد تعبير غاستون باشلار. حيث إن المعرفة العلمية تقدم في سياق مجتمعي محيط بالطالب، وهو محيط ينتج المعرفة المشتركة التي تقابل المعرفة العلمية.

١ - نقلا عن عبد الرزاق التيجاني: فليب ميريو: فلسفة أبيقورية تؤطر التعلم، والفكر وحده قادر على تسليح الحرية ومناقشة الأمل الديمقراطي، الشرق الأوسط الخميس - ١٥ ذو القعدة ١٤٣٧ هـ - ١٨ أغسطس ٢٠١٦ م.
٢ - نقلا عن المرجع السابق نفسه.



ليس للأستاذ سلطة في سماع الاسترجاع الذي يمكن أن يكون سببا لإدراك فهم المتلقي، من هنا ضرورة تفعيل ميكانزمات عملية ودقيقة لتسييج المعرفة العلمية إيستيمولوجيا أخذا بعين الاعتبار سياق التلقي.

- **تربية العقل:** ومن المفاهيم المركزية التي يجب اعتمادها في سياق التحول توظيف مفهوم تربية العقل في الثقافة الفلسفية المعاصرة التي تؤسسها فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، خصوصا في التحولات السياقية مع التعلم عن بعد.

- **تجاوز العوائق العلمية:** إن فلسفة المعرفة ومفهوم تجاوز العوائق الإيستيمولوجية ضرورة منهجية للتعليم والتعلم، ولا يمكن مواكبة التطورات التعليمية بممارسات تقليدية غير عقلانية لا تراعي التحولات، من هنا لا بد من تبني مقاربات عقلانية تتجاوز الفكر التعليمي المشترك وتتغى ممارسة عقلانية تراعي شروط الإمكان المعرفية كما يسميها ميشيل فوكو.

خاتمة وتأسيس في الثقافة الإسلامية:

إن المتتبع لمسار التعلم في الثقافة الإسلامية يدرك الفرق الشاسع بين هوية إسلامية رصينة سمي فيها المصطفى ﷺ أول المتعلمين أصحابا، ولم يسمهم أتباعا ولا مريرين.

وفي الأشكال السيمولوجية التي كانت تعبر عن المساواة خير دليل لفهم نجاح التلقي والتعليم. فهو «الجالس بين أصحابه» دلالة رمزية سهلت التعلم وحببته، وهو «رؤوف رحيم» وصفا من الله جل وعلا، فكان الحب أساسا للتعلم، إيمانا بمضمون الرسالة الكونية التي علمت العالم، بعيدا عن الغرابة التي وسعت الهوة



بين المتعلم والمعلم في ثقافتنا التي فقدت هويتها: فلا هي عربية
إسلامية ولا غربية عِلْمَانِيَّةٌ.



فقه الوباء: دراسة في المفهوم والأحكام والعلاج

د. محمد ولد الشيخ
أستاذ الفقه وأصوله
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

مقدمة

يعيش الناس في ظل الأوبئة والجوائح ظروفًا استثنائية لها تأثير بالغ على مسار حياتهم بشكل عام، سواء في الجانب الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي، مما يستدعي تعاون أفراد المجتمع على التخفيف من وطأة تأثير هذه الظروف في تلك الجوانب المختلفة، كلٌّ من موقعه الوظيفي، وفي إطار اختصاصه المعرفي.

وإسهاما منا في ربط المعرفة الشرعية بالواقع المعيش، تأتي هذه المحاضرة بيانا للموقف الشرعي من مختلف التدابير الوقائية المتخذة حفاظا على سلامة الأفراد وأرواحهم، والتي اقتضت أن تغلق المساجد وتعلق الشعائر التعبديّة الجماعية، نظرا لما يتطلبه الظرف الراهن، من الالتزام بالتباعد الاجتماعي، سعيا إلى وضع حد



لتفشي هذه الجائحة التي تهدد الوجود البشري بأسره.

ومما يزيد الحاجة إلى الحديث عن الموقف الشرعي من هذه التدابير إلحاحاً، تزامنها مع شهر رمضان المبارك، الذي ألف فيه المسلمون شعائرَ جماعيةً كالتراويح، وفرديةً كالاغتكاف، وعاداتٍ اجتماعيةً كالتزاور والاجتماع، لكن الاحترازَ من الوباء المتفشي اقتضى إيقاف تلك الشعائر والعادات، بسبب ما يتطلبه الظرف من منع الاجتماعات، سواء في المساجد أو البيوت أو الأسواق والأماكن العامة.

ودفعا لما يمكن أن يشعر به كثير من الناس، من الحرج بسبب ذلك، كان لزاماً على أهل العلم أن يبادروا ببيان التكييف الشرعي لهذه التدابير المتخذة، بناء لها على أصولها الشرعية، بما لا يُيقى مجالاً للتحرج من آثار الالتزام بها.

لذلك وقع الاختيار على تناول هذه المسألة في هذه المحاضرة، تحت عنوان: «فقه الوباء: دراسة في المفهوم والأحكام والعلاج».

وقد تحدثتُ فيها عن الموضوع في مباحث ثلاثة

أولها: فقه الوباء: تعريف وتحليل.

ثانيها: الأحكام الشرعية للوباء: عرض وتأصيل.

ثالثها: الوسائل العلاجية : عرض ووصف.

وتحت كل مبحث من المسائل والقضايا ما هو كفيل ببيان أصالة التحرز والتوقي في الإسلام، انطلاقاً من مبادئه الكلية، ووسائله الشرعية.



المبحث الأول: فقه الوباء: تعريف وتحليل

يقتضي المنهج العلمي في تحليل دلالات المصطلحات المركبة تعريف كل جزء منها استقلالاً، ثم بيان المعنى اللقبي بعد التركيب. فلا بد من تعريف الفقه أولاً، ثم الوباء ثانياً، ثم المركب الإضافي: «فقه الوباء ثالثاً».

١ - الفقه: هو في اللغة بمعنى الفهم الدقيق، ويطلق على الشعر والطب وغيرهما من المعاني، ولكل منها شواهد استعمال في لغة العرب وكلامهم.^١

وهو في الاصطلاح: «العلم بالأحكام الشرعية العملية بالاستدلال ويقال فقه بكسر القاف إذا فهم وبفتحها إذا سبق غيره للفهم وبضمها إذا صار الفقه له سجية».^٢

٢ - الوباء: هو في اللغة بمعنى الوباء الذي يفسو ويعم جماعات من الناس.^٣

ومعناه في اصطلاح الأطباء القدامى: الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان وتشمل أكثرهم، ويُرجعون سبب ذلك إلى فساد الهواء. ولورود أحاديث نبوية شريفة في موضوع الأوبئة والطواعين، خاض الفقهاء والمحدثون في بحث معنى الوباء، ومعنى الطاعون.

فذهبت طائفة من الفقهاء إلى القول بتزادفهما، كالإمام أبي الوليد الباجي المالكي، الذي قال: «الوباء هو الطاعون، وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات دون غيرها، تخالف المعتاد من أمراض الناس ويكون مرضهم واحداً بخلاف سائر الأوقات».^٤

١ - الطوفي، نجم الدين، شرح مختصر الروضة: ١٣١/١، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: مادة (فقه).

٢ - القرافي، الذخيرة: ٥٧/١.

٣ - الجوهري: الصحاح، مادة وبأ.

٤ - أبو الوليد الباجي، المنتقى في شرح الموطن: ١٩٨/٧.



وذهبت طائفة من أهل الحديث إلى أن الوباء أعم من الطاعون؛ إذ يطلق على الطاعون وعلى غيره، فكل وباء طاعون، وليس كل طاعون وباءً؛ يقول القاضي عياض: «الوباء عموم الأمراض فسميت طاعوناً لشبهها بالهلاك بذلك وإلا فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعوناً»^١.

وانطلاقاً من مذهب الأطباء، في تعليل ظهور الوباء، بفساد الهواء، حاول ابن حجر بناء الفرق بين الوباء والطاعون، فقال: «والطواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئة، ومن ثم أطلق على الطاعون وباء، وبالعكس، وأما الوباء فهو فساد جوهر الهواء الذي هو مادة الروح ومدده، فهذا ما بلغنا من كلام أهل اللغة وأهل الفقه والأطباء في تعريفه»^٢.

يتبين من هذا أن الخلاف بين العلماء في تحديد العلاقة بين معنيي الوباء والطاعون خلاف لفظي، لا يترتب عليه أثر عملي، فالأولى أن ينظر إلى ما يشتركان فيه من آثار العدوى، وعواقبها، وهي الاعتلال مبتدئاً، والهلاك منتهى ومآلاً، واتحاد هذه الآثار لا يبقى قيمة للخلاف اللفظي بين العلماء في حقيقتهما.

٣ - **فقه الوباء:** من خلال تحليل دلالات مصطلحي «الفقه» و«الوباء» يمكننا أن نصوغ تعريفاً للمركب الإضافي «فقه الوباء» بأن نقول: إنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المتعلقة بالمرض العام المعدي، المكتسب من الأدلة التفصيلية الواردة في ذلك. وقد أسلمنا هذا التعريف إلى الأدلة الشرعية المتعلقة بالأوبئة

١ - القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم: ١٣٢/٧.

٢ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: ١٨٠/١٠-١٨١.



والأمراض، فما أهم هذه الأدلة؟ وما الذي يمكن أن يستنبط منها من الأحكام؟

هذا ما سنفرد له ثاني مبحثي هذا العرض.

المبحث الثاني: الأحكام الشرعية للوباء: عرض وتأصيل

نقصد بهذا المبحث إلى تفصيل القول في الأحكام الشرعية التي يجملها مصطلح فقه الوباء، مع محاولة التأصيل الشرعي لها.

ومما يتعلق بذلك بيان الحكم الشرعي لما اقتضاه الظرف الراهن من الإجراءات الاحترازية التي أمرت بها الجهات المعنية، من حيث التكييف الشرعي لها، باعتبارها أحكاماً يجب الالتزام بها.

وتتنوع الأدلة التي يمكن أن تخرج عليها أحكام هذه النازلة ما بين آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأصول اجتهادية.

أما القرآن الكريم فمنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^١ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^٢.

أما السنة النبوية فما ورد فيها من الأحاديث الكثيرة المتعلقة بالأوبئة والأمراض، أصلح للاعتماد عليه، والاستناد إليه، في مختلف ما يتعلق بهذه النازلة من الأحكام.

ذلك أن المحدثين قد أفردوا أبواباً للأوبئة والأمراض في مصنفاتهم، إما في «كتاب الطب» كما صنع أصحاب الصحاح والسنن، وإما في

١ - سورة الحج، الآية: ٧٨.

٢ - سورة النساء، الآية: ٢٩.



أبواب «ما جاء في الطاعون» كما صنع مالك رحمه الله.

ويكادون يُجمعون على أن الأصل في الباب حديث واحد، وأن ما عداه كامل له والشارح، إنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب، خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرع - اسم مكان - لقيه أهل الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعوتهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلّفوا.

فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلّفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة فريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يخلّف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة - وكان عمر يكره خلافه - نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كانت لك إبل فهبطت وإدياً له غدوتان، أحدهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته،



فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: {إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ}.

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ.^١

يعد المحدثون والفقهاء هذا الحديث أصلًا في الباب، ففيه من الدلالات على الأحكام الشرعية ما لا يوجد مجتمعًا في غيره.

ومما يمكن استنباطه من الأحكام التي يدل عليها:

- وجوب الأخذ بنظام الحجر الصحي: ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركنَ إلى ما وقرَّ في قلبه من عدم دخول الشام، ولذلك استشار من كان معه من الصحابة الكرام؛ إذ لم يكن بالذي يرى الرأي فيأخذ به دون أن يستشير.

وقد سرَّ بما انتهى إليه من الحديث النبوي الذي حدّثه به عبد الرحمن بن عوف، موافقا لما كان قد رأى برأيه، وهو الموفق الذي كان ينزل القرآن تأييدا لآرائه ورؤاه.

وحديث عبد الرحمن بن عوف صريح الدلالة على وجوب الالتزام والإلزام العام بالحجر الصحي، وما ذلك إلا أسلوب وقائي من تفشي العدوى وتناقل المرض.

- أن من صلاحيات ولي الأمر إلزام الناس بما فيه مصلحة معاشهم، ووقايتهم من أسباب هلاكهم، والحفاظ على أرواحهم، وأن له أن يستشير أهل العلم فيأخذ بفتواهم؛ قال ابن العربي في الإشارة إلى

١ - متفق عليه، أخرجه البخاري في: باب ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: ٥٧٢٩.

ومسلم في: باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم الحديث: ٢٢١٩.



ذلك: «فيه - أي في حديث ابن عباس - أخذ الإمام بالفتوى بما يرى أن فيه صلاحَ المسلمين».^١

بل أفاد الحديث أن للإمام أن يحل فتوى العلماء بمنزلة الحكم المُلزم، وأن حكمه بها ينقلها من مرتبة الإعلام إلى منزلة الإلزام، وذلك ما عبر عنه الفقهاء بقولهم: «حكم الحاكم يرفع الخلاف».

وذلك ما سلكته القيادة الرشيدة بدولة الإمارات العربية المتحدة حماها الله لما أخذت بفتوى مجلس الإمارات للإفتاء الشرعي، التي صدرت بدايةً أزمة كوفيد ١٩، مبينة أن الالتزام بجميع التعليمات الصحية والتنظيمية التي تصدرها الدولة واجب شرعي، مؤصلة لمختلف التدابير الوقائية التي من شأنها أن تحد من انتشار الوباء واستشرائه.

- أن اتخاذ هذه التدابير الوقائية لا يتعارض مع الإيمان، بل هو من صميمه؛ إذ الأخذ بالأسباب من جملة المقادير؛ وفي ذلك يقول ابن العربي: «قوله: {فلا تقدموا عليه}، وإنما ذلك لأمر، منها: ألا نتعرض للحُتوف، وإن كان لا نجاة من قدر الله، ولكن من حُسنِ قدره أن يسر لنا الحذر».^٢

فما تشعرننا به الوسائل العلمية الحديثة من خطورة الأوبئة والأمراض، قائم مقام إخبار أبي عبيدة سيدنا عمر رضي الله عنه بخطورة القدوم على الشام، فهو من حسن القدر الذي ييسر الله لنا به الحذر، وما الحذر إلا الالتزام بالتدابير الوقائية.

١ - ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك: ٢١١/٧.

٢ - المسالك في شرح موطأ مالك: ٢١٢/٧.



- أن ما في حديث ابن عوف من التفرقة بين حالي البعد عن موضع الوباء، والتواجد في بؤرة تفشيه، إشارةً إلى ما كان يعتمده الفقهاء فيما سموه «فقه التنزيل» من التفرقة بين ما قبل الوقوع، وما بعد الوقوع.

وهو من معايير التمييز بين ما ينبغي العمل به من الأحكام المقررة تجريداً في الكتب الفقهية، في الأحوال العادية، قبل وقوع النوازل الطارئة، وبين ما يتعين الأخذ به من فتاوى التيسير والترخيص بعد الوقوع، أي في الأحوال الاستثنائية.

وتطبيقاً لهذا نقول: إن المساجد في الأحوال العادية يجب أن تبقى مفتوحة في وجه المصلين وقت كل صلاة، وأن تعمر بذكر الله وإقامة الصلوات مفروضها ومسنونها، وأنه لا يجوز إغلاقها ولا منع أحد من الصلاة فيها خاصة في رمضان؛ إذ هي كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾^١ وكما قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^٢ لكن هذا الحكم أصلي كما يقول الفقهاء، تدل عليه هذه الأدلة باقتضائها الأصلي، من غير نظر في التوابع والإضافات، والنظر فيها هو الذي يقتضي تغيير هذا الحكم الأصلي إلى غيره من الأحكام، باعتبار ما سيؤول إليه العمل بالحكم الأصلي من المفاسد في المآلات، وهذا هو المقصود بما بعد الوقوع.



١ - سورة الجن، الآية: ١٨.

٢ - سورة النور، الآية: ٣٦.

فقبل وقوع الوباء كان الحكم وجوب فتح المساجد، وهذا حكم أصلي، لكن بعدما استجد الوباء، وتيقن كونه ينتقل بالعدوى في أماكن التجمعات العامة ومنها المساجد، صار الحكم وجوب إغلاقها، كغيرها من المرافق العامة؛ إذ النظر في المآلات يقتضي ذلك، وهو من الأصول الشرعية التي يتعين اعتمادها في الفتوى.

فيكون السماح بالتجمعات في المساجد والأماكن العامة زمن الوباء ضرباً من الإلقاء إلى التهلكة المنهي عنه بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.^١

وذلك ما أشار إليه الحافظ ابن حجر لما قال تعليقا على اختلاف الصحابة لما استشارهم عمر في القدوم على الشام أو الإجماع عنه: «وفي هذا الحديث جواز رجوع من أراد دخول بلدة فعلم أن بها الطاعون وأن ذلك ليس من الطيرة وإنما هي من منع الإلقاء إلى التهلكة».^٢

أن إيثار عمر بن الخطاب الإجماع والعدول عن دخول الشام فيه إعمال لمبدأ مقاصدي، وهو أن مقصد حفظ الأنفس له أولوية على غيره من الضروريات، ومن القواعد المقررة عند العلماء في ذلك: «حفظ النفس مقدم على حفظ الدين».

ومع أنها قاعدة خلافية، إلا أن حديث ابن عباس هذا مما يقضي برجحان تقديم حفظ الأنفس على حفظ الدين؛ إذ لا قيام للدين إلا بالأنفس المعصومة، والأرواح المصونة.

١ - سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

٢ - ابن حجر، فتح الباري: ١٨٧/١٠.



والتدابير الوقاية من الأمراض أكفَل لحفظ النفوس من غيرها؛
لتعلقها بما قبل الوقوع كما تقدّم.

وقد مثّل الطاهر بن عاشور رحمه الله ب: «حماية الأنفس من
الأمراض السارية» لأقوى الوسائل الشرعية المراد بها حفظها -أعني
الأنفس- من الهلاك والتلف.^١

- أن في تطبيقات الفقهاء في الأحوال الاستثنائية ما ينبغي أن يتخذ
أصولاً تُخرَج عليها هذه التدابير الوقائية الاستثنائية، فقد وجدناهم
يتخصّصون في غسل الموتى زمن الأوبئة والطواعين، حين يُخافُ على
جثثهم من التحلل، أو على مغسلتهم من أن تصيبهم العدوى
بمباشرة غسلهم، كما وجدناهم يجيزون جمع عدد من الموتى في
قبر واحد أثناء الدفن؛ يقول عبد الملك ابن حبيب: «لا بأس عند
الوباء وما يشتد على الناس من غسل الموتى لكثرتهم أن يجتزئوا
بغسلة واحدة بغير وضوء يصب الماء عليهم صبا، ولو نزل الأمر
الفظيح بكثرة الموتى فلا بأس أن يدفنوا بغير غسل إذا لم يوجد من
يغسلهم ويجعل النفر منهم في قبر واحد».^٢

وهذا كله وعي منهم بوجود التفرقة بين فقه الأحوال العادية،
وفقه الأحوال الاستثنائية، التي يتعين فيها الأخذ بمبادئ الاحتياط
والنظر في المآلات، وغيرهما من المبادئ الكلية الضامنة حسنَ الفهم
والتنزيل للأحكام الشرعية.

١ - الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية: ٨٩.

٢ - المواقي، التاج والإكليل: ٢٧/٣.



وإذا كانت الأحكام الشرعية المتعلقة بالوباء في هذا المستوى من التأصل والوضوح، فإنه مما يضيف على البحث الفقهي فيها صبغة عملية، ذكر ما يمكن أن يعدّ إسهاما في محاولة العلاج، فلنفرد ذلك بخاتمة مباحث هذه المحاضرة.

المبحث الثالث: الوسائل العلاجية عرض ووصف:

لقد دلت الشريعة المطهرة على جملة أساليب علاجية للوباء بعد وقوعه، كما دلت على طرق وقائية تحمي منه قبل وقوعه، فنعرض ذلك في الفقرتين الآتيتين:

أساليب الوقاية الشرعية من الوباء:

أول ما يترأى لنا ونحن نبحث عن التدابير الوقائية من الأوبئة في نصوص الشريعة أحاديث تتعلق بما يأتي:

الوقاية من الأوبئة قبل وقوعها:

ومما يدل على ذلك حديث الباب، وفيه رجوع عمر رضي الله تعالى عنه بالناس عن الوباء، وكان ذلك موافقا لحديث أسامة بن زيد الذي أخرجه البخاري مرفوعا: {إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا}.^١ ويعد هذا تدبيرا جماعيا لتفادي الإصابة بالعدوى.

أما في مستوى الفرد فورد الأمر بالتوقي من الوباء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {لَا تُوردُوا الْمُمرِضَ عَلَى الْمُصِحِّ}.^٢

١ - صحيح البخاري كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، رقم الحديث: ٥٧٢٨.

٢ - صحيح البخاري، باب لا عدوى، رقم الحديث: ٥٧٧٤.





- الحرص على استدفاع الأوبئة بمختلف الوسائل بعد وقوعها:

من الوسائل التي دلت الشريعة على استعمالها في استدفاع الأوبئة بعد وقوعها الدعاء، وهو من الأسباب التي ثبتت نجاعتها في ذلك؛ لما له من عميق الأثر في النفوس؛ إذ يبعث فيها الأمل في النجاة والتعافي.

لذلك بوب البخاري في صحيحه فقال في بعض تراجم كتابه: «باب الدعاء برفع الوباء والوجع»، وذكر جملة من الأحاديث التي تشهد للدعاء برفع الوباء والوجع؛ قال ابن بطال: «فيه من الفقه جواز الدعاء إلى الله تعالى في رفع الوباء والحمى والرغبة إليه بالصحة والعافية..»^١.

وذكر الفقهاء أن مما يستعان به في ذلك التقرب إلى الله عز وجل بنوافل الصلاة؛ لرفع الوباء.

وقد ذكر سيدي محمد عlish في شرحه لمختصر خليل أن الصلاة مستحبة لرفع الوباء قال: «وتندب الصلاة للزلزلة ونحوها من الآيات المخوفة كالوباء والطاعون أفذاذا وجماعة ركعتين أو أكثر، وعن اللخمي ندب ركعتين وتجب بأمر الإمام»^٢.

خاتمة:

تبين مما تقدّم أن فقه الوباء في الإسلام متأصلٌ بأدلته القوية الدلالة على مختلف ما يندرج تحته من أحكام، وأن تراث الفقهاء فيه من التطبيقات الفقهية الخاصة بطوارئ النوازل ما يصلح لأن

١ - ابن بطال، شرح صحيح البخاري: ٣٩٣/٩.

٢ - محمد عlish، منح الجليل في شرح مختصر خليل: ٣٣٣/١.

يتخذ أصلاً تخرّج عليه مختلف التدابير الوقائية التي تتخذ في
سبيل حفظ الأنفس البشرية.

والموضوع وإن كانت متشعبةً فروعاً، ممتدةً أغصاناً، لا يكفي
أن يلمع إلى مختلف مسائله في محاضرة واحدة، وإنما هو حري
بأبحاث أكثر توسعاً وشمولاً، وحسبنا في هذه العجالة أن نحظى
بشرف التعريف به والدلالة عليه، والحمد لله بدءاً وختاماً.



أسس التعامل مع كوفيد ١٩ المستجد في الفقه الإسلامي وتطبيقاتها في دولة الإمارات العربية المتحدة

د. الجيلالي المريني
أستاذ الفقه وأصوله
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على تمام فضله وإكرامه، وعلى سابغ إحسانه وإنعامه، وهو الذي بنعمته تتم الصالحات، وتفرج الكربات، وتعالج الأسقام ويرفع البلاء، وهو ذو الجلال والإكرام، وذو الطول والإنعام، فله الحمد واجباً، وله الدين واجباً.

أما بعد، فإن المصالح الدنيوية الكونية مصالِح مشوبة بنوع من المفاسد وتكاليف ومشاق، وأمراض وابتلاءات، قلت أو كثرت، تقترن بها أو تسبقها، أو تلحقها، كالأكل والشرب، واللبس والسكنى والركوب، والنكاح، والأوبئة والأوجاع، والزلازل وغيرها.



والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْوَاقِ وَالْأَسْوَاقِ فَتَنَّاكُمْ﴾^١،
وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^٢.

فلهذا لم يخلص في الدنيا لأحد جهة خالية من شركة الجهة الأخرى ،
ومما ينغص اليوم على حياتنا، ويعكر صفوها، ويبطش بالبشرية
وباء «كوفيد ١٩» الذي أزهق الأرواح، وأضاع الأموال، وحبس
الأنفاس، ومن الأسس الشرعية التعامل مع وباء «كوفيد ١٩»
المستجد.

الأساس الأول : طاعة ولي الأمر:

في هذا الأمر وغيره، بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٣.

ووجه الاستدلال بالآية الكريمة: ﴿أَطِيعُوا﴾ وهو أمر، والقاعدة أن
الأصل في الأمر الوجوب، وعليه تكون طاعة الله واجبة ، وكذلك
طاعة الرسول ﷺ وجاء العطف على هذا الواجب لولي الأمر.

ومما يشهد لوجوب طاعة ولي الأمر: قول النبي ﷺ: {مَنْ أَطَاعَنِي
فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ
أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي}.^٤

ووجه الاستدلال بهذا الحديث النبوي الشريف أنه ربط بين طاعة
الرسول ﷺ وطاعة الأمير، وعليه فطاعة ولي الأمر شرع.

١ - سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

٢ - سورة هود، الآية: ٧.

٣ - سورة النساء، الآية: ٥٩.

٤ - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية،

وتحريمها في المعصية، رقم الحديث: ٣٥٢٦.



-القاعدة الفقهية: «تصرف الإمام منوط بالمصلحة»، وبعبارة أخرى تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

وهذا أمر عام في الأحوال العادية وغير العادية، وفي مناحي الحياة جميعها، لأن العام يجري على عمومته، ويزداد الأمر وجوباً إذا اشتد البلاء، وتهددت النفوس، وعمت الجائحة، فأمر ولي الأمر لإنقاذ النفوس والعباد، يصبغ في أعلى درجات الوجوب لدرء المفاسد وجلب المصالح، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، عملاً بقاعدة: «يرتكب أخف الضررين».

وفي هذا الإطار أشيد بأوامر أولياء أمورنا في هذا المضمار، وأخص بالذكر هنا سمو الشيخ محمد بن زايد حفظه الله الذي قال في كلمته الذهبية بعد فرض الحجر الصحي الواجب: «الدواء والطعام خط أحمر للمواطنين والمقيمين»، وهي كلمة تؤكد الواجب وتقويه، وتضمنه وتطمئن على ما تستلزمه واجبات الحجر الصحي.

الأساس الثاني: الأخذ بالأسباب الشرعية:

لأن القاعدة الأصولية: «إن وضع الأسباب يستلزم قصد الواضع إلى المسببات» أعني: الشارع، والدليل على ذلك أمور:

أحدها: أن العقلاء قاطعون بأن الأسباب لم تكن أسباباً إلا بنسبها من حيث هي موجودات فقط، بل من حيث ينشأ عنها أمور أخرى؛ وإذا كان كذلك لزم من القصد إلى وضعها أسباباً القصد إلى ما ينشأ عنها من المسببات.

الثاني: أن الأحكام الشرعية إنما شرعت لجلب المصالح ودرء المفاسد، وهي مسبباتها قطعاً، فإذا كنا نعلم أن الأسباب إنما شرعت لجلب المسببات؛ لزم من القصد إلى الأسباب القصد إلى المسببات.



الثالث: أن المسببات لو لم تقصد بالأسباب لم يكن وضعها على أنها أسباب، لكنها فرضت كذلك، فهي ولا بد موضوعة على أنها أسباب، ولا تكون أسباباً إلا لمسببات من جهتها، وإذا ثبت هذا وكانت الأسباب مقصودة الوضع للشارع لزم أن تكون المسببات كذلك.^١

وتنزيلاً لهذا الواقع في هذا الباب أستدل بعمل الصحابي: فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خرج إلى الشام ووصل إلى منطقة قريبة منها يقال لها «سرغ» بالقرب من اليرموك لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فقال عمر: ادعوا لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا؛ فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعاهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعاهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن نرجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس أي مٌصْبِحٌ على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله؛ رأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة،

١ الشاطبي، الموافقات: ١/١٣٤-١٣٥.



أليس إن رعيت الخصبه رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟.

فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغييا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ} فحمد الله عمر، ثم انصرف.

الأساس الثالث: حفظ النفوس ضروري من الضروريات الخمس:

وهي بعد حفظ الدين، فالنفس، فالعقل، فالنسب والعرض فامال، ورغم أن حفظ النفس بعد حفظ الدين في سلم المقاصد ومراتبها، إلا أن تقديم النفس هنا كان بأمر الدين، ومن الدين، وفي هذه الحالات الاستثنائية التي تغلق فيها المساجد، وتتوقف العمرة، إلى غير ذلك، فما زال الأصل أصلا والاستثناء استثناء من الدين.

وحفظ النفوس ضروري من الضروريات الخمس الذي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم و الرجوع بالخسران المبين.

فالتطبيب ومعالجة «كوفيد ١٩» ضروري وواجب، لأنه يحافظ على النفوس، ولأن ما يدرأ عن النفوس، باختلال الواقع أو المتوقع فيها يجب التأزر لتحقيقه، والتمكين له حتى نحقق المقصود، ونرفع الداء والوباء، ونحافظ على النفوس.

كل هذا ثابت بالاستقراء التام، وهو الأمر الذي عمل على تحقيقه

١ - صحيح البخاري كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، وأخرجه مسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة.



سمو الشيخ محمد بن زايد حفظه الله ورعاه، حيث قال في خضم وباء « كوفيد ١٩ »: التطيب والغذاء خط أحمر سواء تعلق الأمر بالمواطنين أو بالمقيمين، وإذا أمعنا النظر في هذا القول وجدناه ينم عن تحقيق حفظ النفس من جهة الوجود، ومن جهة العدم؛ يقول الإمام الشاطبي وهو بصدد الحديث عن حفظ النفس: «كتناول المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات وما أشبه ذلك»،^١ فقول سمو الشيخ محمد بن زايد وصيغته من صميم حفظ النفوس بالطعام والتغذية، وهذا أمر في غاية الأهمية.

أما التطيب فهو ما يدرأ عن النفوس الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

وعليه يكون قول سمو الشيخ محمد بن زايد بالأمر بالتطيب في هذا الوقت العصيب مما يحفظ النفوس، ويديرأ عنها الاختلالات والأوبئة وهو لعمرى من صلب الدين وقواعده، ومقاصده ومكارمه وضرورياته.

الأساس الرابع: اعتبار المآلات:

النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع، لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فرمما أدى استجلاب المصلحة

١ - الشاطبي، الموافقات: ٢/٣٦٦.



فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق محمود الغيب جار على مقاصد الشريعة»^١.

وبناء على هذه القاعدة الهامة: «المآلات معتبرة شرعاً»، فمن ترك الناس هملاً وبدون حجر صحي، وبتفشي هذا المرض وانتشاره الواسع والعريض والسريع سيعم الكل والمواطنين، مما يؤدي إلى الهلاك الكلي، نعم يراه الجزء ليس خطيراً جداً إلا أنه باعتبار المآلات يكون أصعب و أفتك و أشد خطراً؛ فهو باعتبار ما يؤول إليه الأمر يعني الموت والضياع.

والقاعدة الأصولية «الفعل المكروه بالجزء قد يصبح ممنوعاً بالكل»، وأنا أقول: إذا كان الفعل ممنوعاً بالجزء؛ فإنه يكون عاماً أشد وأغلظ، وهذا الذي ينطبق على واقعنا المعيش، فانتشار الوباء وتغلغله في الأحياء أشد فتكاً، وأشد على البشرية حجماً، وهذا باعتبار ما سيؤول إليه الأمر، أي المآلات وباعتبار الجزء والكل، فالقاعدة: «أن الأفعال كلها تختلف أحكامها بالكلية والجزئية من غير اتفاق»؛ فالواجب الشرعي أن نبنى على واقع المآلات، وخواتمها، لأنه معتبر شرعاً كما سبق.

الأساس الخامس: التضامن الضروري والحاجي:

أعني بذلك التضامن فيه ما هو تطوعي، وفيه ما هو ضروري

١ - الشاطبي، الموافقات: ٤/٤٨٢.



وواجب، كالزكاة وغير ذلك، إلا أنني أعني بذلك التضامن الاضطراري لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتحقيق الضرر أو ارتكاب أخف الضررين، وإحياء النفوس بكل ما يستلزمه الأمر بناء على:

- القاعدة الأصولية والفقهية: «ما لا يتم الواجب به فهو واجب».

- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم} ¹.

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على الأشعريين بسبب هذا الفعل وأقرهم عليه، وأشاد بهم فقال: {فهم مني وأنا منهم} أي: هم على طريقي وسنتي.

ولا غرابة أن يستنبط الحافظ ابن حجر من هذا الحديث النبوي الشريف دليل الضمان الاجتماعي.

وإذا كان هذا عند الأشعريين إذا قل طعامهم، فما بالك بنا اليوم والبشرية تعاني من مرض مخوف، ووباء فتاك وجوع للفقراء، وقلة يد عند بعضهم، أليس من الواجب أن يتضامن أبناء الوطن الواحد فرداً فرداً، وبيتاً بيتاً وحيماً حياً، ومدينة مدينة لمواجهة الأزمات وما ألفت من مشاكل وذبول وصعاب.

وأعود هنا إلى ما يجب فعله في هذه المسألة، وهو التضامن الاضطراري أو الحاجي إلى أصناف الزكاة التي هي الأصل في التضامن والتكافل الاجتماعي في الإسلام، يقول الحق سبحانه عز وجل: ﴿إِنَّمَا

١ - متفق عليه في باب الإيثار و المساواة.



الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^١، ووجه الاستدلال بالآية:

- أن هناك مجموعة من المواطنين عالقون بدول أخرى، بدون مأوى،
وقد استفرغوا جهدهم ومالهم، وهم اليوم في حكم ابن السبيل
يجوز أن تعطى لهم الزكاة، ولو كانوا أغنياء في بلدانهم؛ ودولة
الإمارات العربية المتحدة الشقيقة عملت على تحقيق هذا الأمر
فآوتهم، واستقبلتهم ومددت إقامتهم، ورفعت شروط الإقامة عنهم،
وهذا هو التضامن الاضطراري الحاجي الواجب.

- أن دائرة الفقراء والمساكين، توسعت بسبب كوفيد ١٩، لذا يجب
إعطاء الزكاة لكل مستحقيها، الذي التحق بصفة الفقير والمسكين،
أو الذي لم تكن صفة له اليوم وقد أصبح فقيرا أو مسكينا تعطى
له الزكاة، بناء على القاعدة الأصولية: من لم يقيم به وصف لم يجز
أن يشق له منه اسم، ومفهوم المخالفة إذا قام به وصف يجوز
أن يشتق له منه اسم؛ وعلى أي فتوسيع دائرة التضامن الحبي
والاضطراري والحاجي، هو الأليق في مثل هذه الظروف للإنسانية
جمعاء، وعملا بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبوهريرة رضي الله عنه أن
النبي ﷺ قال: {من فرج عن أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا
فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مسلم
ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله تعالى في عون العبد ما كان
العبد في عون أخيه}.^٢

١ - سورة التوبة، الآية: ٦.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا
يسلمه، رقم الحديث: ٢٣٣٧.



ووجه الاستدلال بالحديث أنه إذا أردنا أن يفرج الله كربنا الديوي والأخروي؛ فلا بد أن نفرج كربات المسلمين، وهذا شرط، والقاعدة: أنه إذا اختل الشرط، اختل المشروط؛ فمن سبل رفع هذا البلاء تفريج كربات الناس والعمل وفقها، عملاً بحديث رسول الله ﷺ.

الأساس السادس: الأخذ بالرخص في مثل هذه الأحوال بناء على:

- قاعدة: «أن الشارع لم يقصد التكليف بالشاق والإعنات فيه»،
والدليل على ذلك:

- من القرآن الكريم: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^١،
وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^٢.

- ومن السنة النبوية الشريفة قوله ﷺ: {بعثت بالحنيفية السمحة}.^٣

- ما ثبت أيضاً من مشروعية الرخص، وهو أمر مقطوع به، وما علم من دين الأمة ضرورة، كرخص القصر، والفطر، والجمع، وتناول المحرمات في الاضطرار.

فإن هذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة... ولو كان الشارع قاصداً بالمشقة في التكليف لما كان ثم ترخيص ولا تخفيف.

- الإجماع: على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه، ولو كان واقعا وحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وذلك منفي عنها، فإنه إذا كان وضع الشريعة على

١ - سورة الحج، الآية: ٧٨.

٢ - سورة النساء، الآية: ٢٨.

٣ - أخرجه العراقي عن أحمد، وهو حديث حسن لغيره.



قصد الإعانات والمشقة، وقد ثبت أنها موضوعة على قصد الرفق واليسير؛ كان الجمع بينهما تناقضا واختلافا، وهي منزهة من ذلك^١.

ويبنى على هذا الأخذ بالرخص والعمل بها، ولا سيما في هذه الفترة التي أغلقت فيها المساجد رخصة، وعطلت صلاة الجمعة رخصة واضطرارا إلى غير ذلك؛ فالقاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات؛ والحاجة تنزل منزلة الضرورة.

فالذي يناسب الاضطرار والحاجة هو الأخذ بالرخص، وإذا لم نأخذ بها في هذا الوقت بظروفه وملابساته فمتى تكون الرخص؟

الأساس السابع: الدعاء.

وهو مخ العبادة كما قال النبي ﷺ، ولهذا يشرع الدعاء لرفع البلاء، وهو سبب رباني مشروع، يطول الحديث بذكره، ومن تطبيقات هذا الأمر: قصة عمر بن عبد العزيز في أمره بالتصدق والدعاء.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾^٢ وهنا أرفع ما يستدل به كذلك، وهو وإن كان ورد في الزلزلة فلا يمتنع أن يفعل مثله في هذا الوباء الخطير، والجامع وقوع التخويف بهما.

وهذا أمر تحقق في هذه الدولة السعيدة، بالصدقات حيث أطلقت حملة عشرة ملايين وجبة، هذا فضلا عن تفريج الكربات، وهو أمر عم سائر الدول الإسلامية.

١ - الشاطبي، الموافقات: ٢/٣٥٤-٣٥٥.

٢ - سورة الأعراف، الآية: ٢٣.



اللهم ارفع عنا البلاء، واحفظنا بهذا الدعاء، وبارك لنا في أوطاننا،
وبارك في شيوخ الإمارات إنك سميع مجيب.





الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

حقوق الطبع محفوظة
جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
الإمارات العربية المتحدة